مدخل إلى دراسة التوحيد

بقلم عصر محمد النصر

تقديم

أ.د. مروان إبراهيم القيسي

1433هـ – 2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وبعد:

فهذه رسالة لطيفة موجزة في التوحيد، جمع أطرافها وألف بين أجزائها أخونا عصر النصر، من طلاب العلم المجدين، وذلك إدراكاً منه لتردي أوضاع المسلمين الدينية نتيجةً للجهل بالعقيدة، وتيقنه بأهمية التوحيد ودوره في حياة الأمة المسلمة ومستقبلها.

وقد قام كاتب هذه الرسالة بالتركيز على المسائل الأهم في العقيدة: من ضرورة معرفة الله وإفراده بالعبودية، والمعنى الصحيح لكلمة التوحيد وشروطها، ومعنى جزئيها: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ، والأساليب الدالة على توحيد الألوهية، والتركيز على الجمع بين صفتي النبوة والبشرية في شخصية الرسول ﷺ، وكيف تتم معرفته. كما شرح أسلوب التعامل مع ما يُشكِل من معاني الأحاديث، ومنهجية الجمع بين الأحاديث ذات الصلة بكلمة التوحيد.

ولم يغفل الكاتب بيان نواقض كلمة التوحيد، ومن قبل ذلك تاريخ نشوء الشرك، ومؤتمرات وحدة الأديان، والولاء والبراء. وقام بتأصيل كل ما أودعه هذه الرسالة القيمة تأصيلاً صحيحاً.

وغني عن القول: إن الكتابة والتأليف هي ثغر من ثغـور الإسلام، ينبغي أن لا

يُقلل من شأنه مقارنة بالجهاد أو غيره، فهو نوع من الجهاد بالكلمة، وثغور الإسلام عديدة، والقيام على بعضها لا يلغي القيام على بعضها الآخر.

ومهما كُتب في التوحيد، فإنه يظل من الأعمال المطلوبة الضروري التذكير بها وتعليمها باستمرار. فجزى الله كاتب هذه الرسالة خيراً، وجعل سطورها وكلماتها في ميزان حسناته، وأصلح الله تعالى عقائد المسلمين التي أصابها ما أصابها نتيجةً لغياب العلم الصحيح.

أ.د. مروان إبراهيم القيسي

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، وأشهد أن لا إله إلا الله إقراراً به وتوحيداً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً مزيداً.

فإن معرفة الدين الذي بعث الله به نبيه ﷺ، من أهم ما يجب على المرء العناية به، فهو محل محبة الله ورضاه.

ويزداد هذا الأمر أهمية بعد العصور الفاضلة التي مضت والعقيدة فيها صافية نقية؛ حيث اعترى العقيدةَ كثيرٌ من الشوائب التي عملت على تشويه جمالها، بل وصل الأمر إلى أن رُفِضَت مصادر العقيدة من كتاب وسنة، إلا في مواضع خجولة، واستُبدِلَت بعلوم اليونان وقواعد الفلاسفة، ووصل الأمر إلى أن من أراد أن يقرر العقيدة قررها على ضوء تلك العلوم المخالفة لدين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[1].

---

(١) يعد هذا السبب - أقصد دخول علم المنطق والكلام- أحد الأسباب التي أثرت في فهم المسلمين للعقيدة الإسلامية وعملت على انحرافه، ومن الأسباب كذلك -وأذكرها على سبيل الاختصار-:

١- مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث ترتب على ذلك اختلاف الآراء، وظهور طوائف مختلفة، ومن بعضها خرجت أفكار تخالف الشرع.

٢- ضعف اللغة العربية؛ ذلك أن القرآن نزل بلغة العرب، وكان نبي الأمة ﷺ عربياً؛ لذلك كان فهم الكتاب والسنة يتوقف على معرفة اللغة العربية، من حيث مفرداتها وأساليبها. وقد نص عدد من الأئمة على هذا، منهم الحسن البصري.

٣- دخول غير المسلمين في الإسلام، خاصة الفرس منهم، وكان هؤلاء على أصناف، أشدهم من دخل حيلةً لهدم هذا الدين من الداخل، وهم أصناف من المجوس، وللشيخ محيي الدين عبد الحميد في تقديمه لكتاب الفَرق بين الفِرق للبغدادي كلام مفصل حول هذا الأمر. =

ولذلك بات من الضروري أن يُنفَضَ غبارُ الكلام والمنطق عن مصادر تلك العقيدة الناصعة النقية وأصولها، ومن ثم عرضها بالصورة الواضحة الميسَّرة التي تتماشى مع جمالها وجلالها؛ ليستفيدَ منها كل مسلم، ويعمل بها بما يحبه الله ويرضاه.

وقد خصصت هذه الرسالة المختصرة التي سميتها «**مدخل إلى دراسة التوحيد**» لبيان أهم مفردات توحيد العبادة، معتمداً في ذلك على تقريرات أهل العلم من أهل السنة والجماعة، وعلى المصادر المعتمدة، ولم أعتنِ بالرد على المخالفين لأهل السنة في هذا الباب، إلا في مواضع قليلة؛ لتعلقها المباشر بموضوع الرسالة، وقد حرصت فيها على تحرير مصطلحات هذا العلم وبيان أقسامه؛ ليسهُلَ على قارئه.

❊ ❊ ❊

= ٤- الجدل الذي كان بين المسلمين وأهل الكتاب وبين المسلمين مع بعضهم، فمن المقرر أن الجدل والنقاش يوكل الأمر فيه إلى العلماء، فإن دخل فيه العامة أدى إلى تحملهم من الأفكار ما لا يعلمون خطأه، فيصبح بالنسبة لهم كالمسلَّم.

فصل

في توصيف أحوال العرب في الجاهلية قبل الإسلام، وأهم ما اتصفوا به من أخلاق وأفكار واعتقادات(١)

«اقتضت حكمة الله أن تطلع هذه الشمس التي تبدد الظلام، وتملأ الدنيا نوراً وهداية، من أفق جزيرة العرب الذي كان أشد ظلاماً، وكان أشد حاجةً إلى هذا النور الساطع.

وقد اختار الله العرب ليتلقوا هذه الدعوة أولاً، ثم يبلغوها إلى أبعد أنحاء العالم؛ لأن ألواح قلوبهم كانت صافية لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة يصعب محوها وإزالتها شأن الروم والفرس وأهل الهند، الذين كانوا يتيهون ويزهون بعلومهم وآدابهم الراقية، ومدنياتهم الزاهية، وفلسفاتهم الواسعة، فكانت عندهم عقد نفسية وفكرية لم يكن من السهل حلها.

---

(١) إن معرفة أحوال العرب في الجاهلية، وتصور أوضاعهم الدينية، يعين أيّما إعانة على معرفة ما جاء به النبي ﷺ، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: الواجب عليك أن تعرف خمس مسائل، الأولى: أن الله لما أرسل محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، أن أول كلمة أرسله بها، قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر: ١ – ٣]، ومعنى قوله: «فَأَنذِرْ»، الإنذار عن الشرك بالله، وكانوا يجعلونه ديناً، يتقربون به إلى الله تعالى، مع أنهم يفعلون من الظلم، والفواحش، ما لا يحصى، ويعلمون أنه معصية.

فمن فهم فهماً جيداً: أن الله أمره بالإنذار عن دينهم، الذي يتقربون به إلى الله، قبل الإنذار عن الزنا، أو نكاح الأمهات والأخوات، وعرف الشرك الذي يفعلونه، رأى العجب العجاب...» (الدرر السنية ١/ ١٢٠).

أما العرب فلم تكن على ألواح قلوبهم إلا كتابات خطتها يد الجهل والبداوة، من السهل الميسور محوها وغسلها، ورسم نقوش جديدة مكانها، وبالتعبير العلمي المتأخر كانوا أصحاب الجهل البسيط، الذي تسهل مداواته، بينما كانت الأمم المتمدنة والراقية في هذا العصر مصابة بالجهل المركب، الذي تصعب مداواته وإزالته.

كانوا على الفطرة، أصحاب إرادة قوية، إذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم أحبوه واحتضنوه، واستماتوا في سبيله.

وكانوا واقعيين جادين، أصحاب صراحة وصرامة، لا يخدعون غيرهم، ولا أنفسهم، اعتادوا القول السديد، والعزم الأكيد.

وكانت قواهم العلمية والفكرية ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب فلسفية دقيقة، وحروب إقليمية سياسية، فكانت أمة بكراً، واثقةً بالحياة والنشاط والعزم والحماس[1].

وقال الشهرستاني رحمه الله مبيناً أحوال العرب في توجهاتهم، وأفكارهم، وعبادتهم، قبل بعثة النبي ﷺ: «الفصل الأول: معطلة العرب، وهم أصناف:

١ـ منكرو الخالق، والبعث، والإعادة:

فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة. وقالوا بالطبع المحيي، والدهر المفني، وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية:٢٤]، إشارةً إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي، وقصراً للحياة والموت على تركبها وتحللها، فالجامع هو الطبع، والملك هو الدهر: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]، فاستدل عليهم بضرورات فكرية وآيات

(١) السيرة النبوية لأبي الحسن علي الحسني الندوي (ص٤٥-٤٨) بتصرف يسير.

فطرية في كم آية وكم سورة، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الاعراف:١٨٤]، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:١٨٥] وقال: ﴿ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٤٨]، وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [فصلت:٩]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة:٢١]، فأثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق؛ وأنه قادر على الكمال ابتداءً وإعادة.

٢- منكرو البعث، والإعادة:

وصنف منهم أقروا بالخالق، وابتداء الخلق والإبداع، وأنكروا البعث والإعادة، وهم الذين أخبر عنهم القرآن: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يَس:٧٨]، فاستدل عليهم بالنشأة الأولى، إذ اعترفوا بالخلق الأول، فقال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ﴾ [يَس:٧٩]، وقال: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [قَ:١٥].

٣- منكرو الرسل: عبّاد الأصنام:

وصنف منهم أقروا بالخالق، وابتداء الخلق، ونوع من الإعادة، وأنكروا الرسل، وعبدوا الأصنام، وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة، وحجوا إليها، ونحروا لها الهدايا، وقربوا المقربين، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر، وأحلوا وحرموا، **وهم الدهماء من العرب، إلا شرذمة منهم نذكرهم**، وهم الذين أخبر عنهم التنزيل: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان:٧، ٨]، فاستدل عليهم

بأن المرسلين كلهم كانوا كذلك. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]»[١].

* * *

(١) (الملل والنحل: ٣/ ٨٠، ط الحلبي).

فصل
في توصيف العلم الإلهي (الوحي) وأنه المصدر في معرفة العقائد

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«قاعدة أولية:

إن أصل العلم الإلهي، ومبدأه، ودليله الأول، عند الذين آمنوا: هو الإيمان بالله ورسوله، وعند الرسول ﷺ: هو وحي الله إليه، كما قال خاتم الأنبياء: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[١].

وقال الله تعالى له:﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴾ [سبأ: ٥٠]، وقال:﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

فأخبر أنه كان قبله من الغافلين، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢].

وفي صحيح البخاري في خطبة أبي بكر لـما توفي النبي ﷺ: «... وَهَذَا الكِتَابُ

---

(١) (البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ [التوبة: ٥] ح ٢٥، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، ح ٣٢).

الذي هَدَى اللهَّ بِهِ رَسُولَكُمْ، فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا وَإِنَّمَا هَدَى الله بِهِ رَسُولَهُ»[١]، وتقرير الحجة في القرآن بالرسل كثيرة، كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة، كان ذكره طريق الهداية بالرسالة. التي هي القرآن، وما جاءت به الرسل ـ كثير جداً، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقوله: ﴿هَٰذَا لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقوله: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وكذلك ذكره حصول الهداية، والفلاح للمؤمنين دون غيرهم مليء بالقرآن، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣ . ٤]، ولهذا أمر أهل العقل بتدبره، وأهل السمع بسمعه، فدعا فيه إلى التدبر، والتفكير، والتذكير، والعقل، والفهم، وإلى الاستماع، والإبصار، والإصغاء، والتأثير بالوجل، والبكاء، وغير ذلك، وهذا باب واسع»[٢] ا.هـ.

* * *

(١) (البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ح ٧٢٦٨).

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/ ٢، ٧-١٠.

بين الوحي والعقل:

لـما كانت مسائل الاعتقاد مسائل غيب بمجملها، سواء كان غيباً متعلقاً بالماضي أو المستقبل.

وكان الغيب باب قد أحكم الله تعالى إغلاقه، وكان مما استأثر الله بعلمه، وكان المصير إلى معرفته هو عن طريق الوحي الذي يصطفي الله به من شاء من عباده.

«لذلك كانت أصول أهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به النبي ﷺ، وأصل الدين عندهم ما جاء به ﷺ»[1]، فلا يقدمون بين يدي الله ورسوله، ولا ينصبون خلافاً بين العقل والرأي وبين الشرع، «ذلك أن المسائل التي لا يتناولها الحس، ولا محل فيها للتجربة، وليس ثمة مقدمات عقلية يصل بها العقل إلى معرفة واقعها، ينحصر مصدر العلم بها في خصوص الخبر الصادق المؤيد بالمعجزات... فيؤمنون بها على القدر الذي أخبر الله به ورسوله ﷺ».

«إذا علمنا هذا فينبغي أن نعلم: أن الله أعد العقول بصفة عامة لإدراك ما هو مطلوب شرعاً، وأعد لها ما يسددها فيه من الفطرة التي لم تفسدها الأهواء، والآيات الظاهرة في الأنفس والآفاق، ثم أكمل ذلك بالشرع المتمثل بالكتاب وناطق السنة»[2].

قال شيخ الإسلام رحمه الله في بيان حاجة العقل إلى النقل:

«فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به ـ أي النبي ﷺ ـ واتباعه منها إلى الطعام والشراب... فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به واتباعه...فكما

---

(١) شرح الطحاوية ص٤٠٤.

(٢) مقدمة الشيخ التركي على شرح الطحاوية ص٢٠.

أن نور العين لا يرى إلا إذا كان نور قُدَّامَهُ، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة...»[١].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١/ ١٦).

فصل
في تقرير العقائد في العصر النبوي

كانت النفوس العربية متعطشةً لنور الوحي الإلهي ليخلصهم من أدران الشرك وكانت فطرهم سليمة وعقولهم راجحة؛ ولذلك قبلوا الدعوة الألوهية لهم بعد أن عادوها ابتداءً وعارضوها، فلما استقر في نفوسهم صدق تلك الدعوة أقبلوا عليها وكلهم يسلم لما جاءت به ودعتهم إليه.

ولذلك كان أبرز ما تميز به منهج تقرير العقيدة وتلقيها في ذلك الوقت هو الاعتماد والتسليم للكتاب والسنة تسليماً كاملاً.

يقول الشيخ أبو زهرة في بيان ذلك: «كان المؤمنون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، يستقون عقيدتهم من القرآن الكريم، ويعرفون ما يليق بذاته تعالى، وما ينزه عنه جل وعلا من آياته، تعالت كلماته، ولذا لم يكن بينهم جدل في شأن من شؤون العقائد...»[١].

وقال ابن أبي العز رحمه الله: «ولهذا كان سلف هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولاً ومعارف وعلوماً، لا تسأل نبيها لم أمر الله بكذا؟ ولم نهى عن كذا ؟ولم قدر كذا ؟ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم...»[٢]

وهذا الأمر يعد من أهم ما يميز ذلك المنهج الذي سار عليه الصحابة رضي الله عنهم في عهد النبي ﷺ وبعده.

---

(١) المذاهب الإسلامية ص٩٦.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٤١.

بل إن من أهم أسباب الخلاف هو ترك هذا الأصل وذلك متمثل بدخول علوم اليونان، وظهور مناهج البحث العقلي الذي لا يلتزم بهدي الوحي الإلهي ونوره.

قال الدكتور مصطفى حلمي في بيان هذا الأصل: «كان الوحي المعصوم هو المصدر الذي تلقى منه الصحابة بواسطة النبي ﷺ هذه الأصول الدينية، كذلك أرشدهم إلى منهج المحافظة عليها ونهاهم عن مفارقتها، وما نشأت الفرق، وما انشق الصف الإسلامي الأول، إلا بمخالفة نواهي الرسول ﷺ... إن كل أسباب التعليم مهيأة، من حيث الرسول ﷺ المبلغ والنفوس المتعطشة لتتلقى عنه الرسالة الخاتمة، فهي الفرصة السانحة لهم وللناس أجمعين، فقد جاء في الحديث عن أبي زيد عمرو بن أحطب الأنصاري رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطب حتى حضرت العصر ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس، فأخبرنا ما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا»»[(١)] رواه مسلم[(٢)].

ومن خلال ما قدمنا من ميزات العرب في الجاهلية وتعطش تلك النفوس لنور التوحيد والإيمان، بالإضافة إلى سلطان القرآن على عقولهم وقلوبهم، مع دلائل الصدق التي رأوها من النبيّ ﷺ، كل هذا سكّن نفوسهم وجعلها تسلّم لما جاءهم من عند الله تعالى؛ ولذلك لم يؤثَر عن الصحابة خلاف في مسائل التوحيد والعقيدة؛ بل لم يكونوا يسألون عن شيء من ذلك.

يقول عثمان جمعة ضميرية: «وقد كان الصحابة يسألون النبي ﷺ عن أمر العبادات، وما يتعلق بها مما لله تعالى فيه من أمر أو نهي، كما سألوه عن أحوال القيامة

---

(١) قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي (ص٣٦-٣٧) بتصرف.

(٢) مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى أشراط الساعة، ح ٢٨٩٢.

والجنة والنار، ولم يكن أحدهم يسأله عن معنى ما وصف الله به نفسه في كتابه، وبما أوحى إليه من الصفات الألوهية، كما أن أحداً منهم لم يفرق في الصفات بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا لله تعالى صفات أزليةً تليق بجلال الله تعالى وعظمته فأطلقوا ما أطلقه الله تعالى على نفسه الكريمة مع نفي مماثلة المخلوقين..»[1].

ويظهر هذا الأمر جلياً من خلال تتبع آيات القرآن فكل الأسئلة التي سطرها لنا هي أسئلة متعلقة بمسائل الفقه والعبادة، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وغيرها من الآيات الدالة على هذا الأمر، وأما ما يتعلق بأسئلة العقيدة، فكان لها أسباب وإن كان هذا الأمر يقل.

وقد تقدم معنا من خلال الكلام عن ميزات العرب أنهم أهل لغة وفصاحة وبيان؛ ولذلك لم تكن أسئلتهم صادرةً عن عدم فهم للنصوص، خصوصاً إذا أضيف إلى ذلك أن القرآن كتاب هداية، أنزله الله تعالى يهدي به من يشاء من عباده.

❊ ❊ ❊

(١) مجلة البيان (العدد ٥١/ ص١٧)، تاريخ المذاهب الإسلامية ص٩٦.

فصل

في دلالة الفطرة على التوحيد

إن الكلام عن توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بالفطرة؛ ذلك أن الله سبحانه قد جبل الإنسان على معرفته والتأله له، وغرز فيه شواهد جماله وكماله وعظمته؛ لذلك كان الكلام عن التوحيد يسبقُ دائما بالكلام على دلالة الفطرة، حيث استفاضت النصوص الشرعية في الكتاب والسنة في دلالة الفطرة عليه، ومن ذلك:

ـ قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

يقول تعالى: اذكر يا محمد النبي آدمَ أخذنا لهم من أصلاب آبائهم، وخلقناهم على الفطرة مقرين بخالقهم شاهدين على أنفسهم بأنه ربهم[١] .

ـ وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

ـ قال ابن كثير في تفسيره: «يقول تعالى: فسدد وجهك، واستمر على الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره».

---

(١) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ص١٩٨ .

ـ قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

ـ فأخبر النبي ﷺ أن كل مولود يولد على الإسلام من الإقرار بربوبية الله وألوهيته، وأن له الكمال والجلال.

ـ ما المراد بالفطرة:

اختلف أهل العلم في المراد بالفطرة على أقوال، إلا أن أصح هذه الأقوال أن المراد بها: الإسلام، والمراد به الإقرار بوجود الله ومحبته وإخلاص الدين له، والقبول بما جاءت به الأنبياء من أصول الاعتقاد، وما جاء به نبينا محمد ﷺ من شريعة.

ـ منزلة الفطرة في الإسلام:

لقد عظم الإسلام أمر الفطرة وشأنها، حيث وصف القرآن الكريم الدين بها، وأمر باتباعها، وحذر العباد من تغييرها مبيناً أن اتباعها هو سلوك الدين الذي ارتضاه.

ومن تعظيم الإسلام للفطرة أن جعلها الأساس السابق لأي دليل شرعي أو عقلي، فرسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام وشرائعهم مكملة للفطرة ومذكرة بها، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]. قال شيخ الإسلام: الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها، وتقويته وإمداده، ونفي المغير للفطرة، فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا بتغييرها وتحويلها، والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة» ا.هـ

ولما كان للفطرة هذه المنزلة العظيمة، وجد كثير من الأسباب للمحافظة علىٰ

الفطرة وسلامتها، ومن هذه الأسباب:

أولاً: النظر في الكون، وتأمل ما فيه من الآيات والمخلوقات، قال تعالى: ﴿أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥].

ثانياً: إرسال الرسل وإنزال الكتب: ذلك أن الفطرة مركوز فيها معرفة الله ومحبته والإخلاص له والإقرار بشرعه وإيثاره على غيره، فهي تعرف ذلك وتشعر به مجملاً ومفصلاً بعض التفصيل.

فجاءت الرسل تذكرها بذلك وتنبهها عليه وتفصله لها وتبينه وتعرفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة المانعة من اقتفائها أثرها.

ثالثاً: حلول المصائب وما يتبعها من خوف: فهذا السبب يضطر الفطرة للبروز، ويجليها من الجحود والضلال الذي قد يغطيها لفترة ثم يزول بمثل هذا السبب فتلجأ إلى الله وتعود إليه.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

رابعاً: التقوى: فإن حقيقة التقوى هي فعل الأوامر واجتناب النواهي، فإذا امتثل الإنسان هذا الأمر فإنه يحفظ فطرته عن كل ما يشوبها ويعكر صفاءها ونقاءها[1].

---

(١) ينظر: كتاب الفطرة ومذاهب الناس فيها ص١٣٢، ١٧٦، وكتاب الأدلة العقلية النقلية ص١٩٨، ورسالة: أول واجب على المكلف، للغنيمان.

فصل

في دلالة العقل على التوحيد:

لـما كانت رسالة محمد ﷺ آخر الرسالات وخاتمتها، وحجة الله على عباده إلى يوم الدين، كان لها من الآيات والبراهين النصيب الأوفى والحظ الأوفر، وفقاً لسنة الله تعالى في تيسير أسباب الشيء بحسب حاجة العباد إليه، رحمةً منه وفضلاً.

تعريف العقل في اللغة والاصطلاح:

العقل في اللغة: يطلق العقل في اللغة على معان كلها تدور حول معنى المنع، يقال عَقَلَ الدواءَ بطنُه: إذا أمسكه، وعقل البعير: إذا ثنى وَظِيفَه إلى ذراعه وشدهما جميعاً بحبل؛ لمنعه من الهرب، وأطلق العقل على الحِجر والنهي.

وأما في الاصطلاح: يقع العقل في الاستعمال على أربعة معان: الغريزة المدركة، العلوم الضرورية، العلوم النظرية، العمل بمقتضى العلم:

- الأول: الغريزة التي في الإنسان، فبها يعلم ويعقل، وهي فيه كقوة البصر في العين، والذوق في اللسان، فهي شرط في المعقولات والمعلومات، وهي مناط التكليف وبها يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان.
- الثاني: المعارف الفطرية، والعلوم الضرورية التي يشترك فيها جميع العقلاء، كالعلم بأن الكل أكبر من جزئه، وأن الضدين لا يجتمعان، وأن الحادث لا بد له من محدث.

وهذان المعنيان من معاني العقل فطريان طبعيان غريزيان، يشترك فيهما جميع العقلاء على حد سـواء، ولا يقع التفاوت فيما بينهم، إذ النقص فيهما ضرب من الجنون

ينزل بصاحبه عن رتبة العقلاء.

ـ الثالث: العلوم النظرية، وهي التي تحصل بالنظر والاستدلال، وتفاوت الناس وتفاضلهم فيها أمر جلي وواقع.

ـ الرابع: يطلق العقل على العمل بمقتضى العلم، وهذا المعنى هو الذي نفاه الكفار عن أنفسهم بعد دخولهم النار كما أخبر الله عنهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ﴾ [الملك: ١٠].

تقسيم العلوم من حيث إدراك العقل لها إلى ثلاثة أقسام:

ـ **الأول**: العلوم الضرورية الفطرية: وهي التي لا يمكن التشكيك فيها، ويدخل في هذا القسم ما نبه إليه الشرع من دلالة الفطرة على الخالق جل وعلا.

ـ **الثاني**: العلوم النظرية المكتسبة بالنظر والاستدلال: فهذه يستند العقل في تحصيلها إلى القسم الأول، وهي نوعان:

١ـ ما تمحض العمل فيه للعقل، وهذا عادةً يكون في العلوم المفضولة كالطبيعيات والرياضيات والطب والصناعات، ويلحق بهذا النوع النظر في العقائد على المنهج البدعي الكلامي أو الفلسفي.

٢ـ ما اشترك فيه العقل مع أدلة الشرع، بالنظر فيها واستخراج ما تضمنته من دلائل ومسائل، ويدخل في هذا النظر في العقائد على المنهج الشرعي.

ـ **الثالث**: العلوم الغيبية: وهذه لا يعلمها العقل إلا بتعليم، ويدخل فيها أكثر مسائل الاعتقاد التفصيلية، وغاية العقل منها - سوى الفهم والتسليم ـ إثبات إمكانها، ونفي امتناعها.

إذن فالعقل يدخل إلى معرفة أصول الاعتقاد الكبار على وجه الإجمال، كالإقرار بالخالق جل وعلا، ووجوب إفراده بالعبادة، والتأله، وإثبات الكمال والتنزيه.

وبهذا نعلم أن منزلة العقل من النقل إنما هي منزلة الخادم من سيده، لأن العقل دل على أن الرسول ﷺ يجب تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، فالواجب على العقل التزام ما التزم، والعمل بمقتضى ما علم.

ولذلك لا ينبغي أن يعطى العقل أكبر من قدره، ويحكم بمسائل الغيب وما يجب لله وما يمتنع، ولا أن يهمل ويلغى دوره إلى درجة تعظيم المغفلين والمجانين، بل يوضع حيث أراد له الله أن يكون، وهو الذي عليه أهل السنة[1].

❊ ❊ ❊

(١) ينظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ج١ص١٥٥ - ١٨٢ الأدلة العقلية النقلية ص٣٢-٣٥ ص٣٩٢.

التوحيد: تعريفه و أقسامه

تعريف التوحيد[١]

التوحيد لغة: مصدر وحّد يوحد توحيداً، أي جعله واحداً.

فهو على وزن تفعيل و تعني الوحدة، والانفراد والتفرد والحكم والعلم بأن الشيء واحد. والمقصود من التفعيل: نسبة للتصديق لا للجعل. فمعنى وحدت الله: نسبته إلى الوحدانية لا جعلته واحداً، لأن وحدانيته صفة، لا بجعل جاعل. أما التوحيد فهو فعل المكلف، وهي مأخوذة من الوحدة وذلك مبني على أن المعبود جل وعلا واحد في حقوقه الواجبة على العباد، كما أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

وسمي دين الإسلام توحيداً؛ لأن مبناه أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له. وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا ند له.

وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا به من عند الله، وهي متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، من أتى بنوع ولم يأتِ بالآخر؛ فما ذاك إلا لأنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «**فأما توحيد الربوبية، فهو: الأصل ولا يغلط في الألوهية إلا من لم يعطه حقه...**»[٢].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص١٧-٢٣، فتح المجيد ص٣٧-٤٠، القول المفيد ص١-١١، فتاوى ابن باز ٢/ ٦٨-٧١، الشرك في القديم والحديث ١٩/ ١.

(٢) الدرر السنية ٢/ ٦٤، تيسير العزيز الحميد ص١٧. قال صاحب كتاب (الشرك في القديم والحديث): «ثم هنا أمر لا بد من تقريره وإيضاحه وهو أن قول أهل العلم عن المشركين بأنهم يعترفون بتوحيد

وأما في الاصطلاح:

فالتوحيد من حيث هو: **العلم بالله واعتقاد تفرده والقيام بحقه.**

قولنا «**العلم بالله**»: أي معرفته سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله وآثار هذه الأفعال.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة**» متفق عليه[1].

وأما الأفعال كالخلق والرزق والتدبير، قال تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

قولنا «**اعتقاد تفرده**»: أي بما أثبتنا له من الأسماء والصفات والأفعال، فنثبتها له على وجه الاختصاص كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

قولنا «**والقيام بحقه**»: أي بعبادته، فالعبادة من خصائصه سبحانه، فلا تكون لغيره، قال تعالى:﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال أيضاً: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وهذا التعريف العام للتوحيد يشملُ ثلاثةَ أقسام، والكلام عنها في الفصل الآتي.

الربوبية ليس المراد به أنهم اعترفوا بهذا القسم من التوحيد على التمام والكمال، فهذا لا يقول به أحد من= = أهل العلم، وإنما مرادهم تقرير ما ثبت في القرآن عن المشركين من اعترافهم ببعض صفات الربوبية وخصائصها، ثم أن هذا ليس حكماً عاماً مطرداً على جميع المشركين» ١/ ١٠٤.

(١) البخاري، كتاب الشروط، باب ما يجوز في الشروط والثنيا في الإقرار، ح ٢٧٣٦، مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، ح ٢٦٧٧.

فصل

في تقسيم التوحيد

يقسم العلماء التوحيد أقساماً متعددة، وذلك على حسب اعتباراته، فمن هذا الأقسام:

ـ يقسم ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

أو قسمين: توحيد معرفة وإثبات، وتوحيد إرادة وطلب، وهذه الأنواع هي عقيدة المسلمين قاطبة؛ المؤمنين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، سوى من انحرف وجانب الصواب من أهل البدع(١).

(١) تذهب كثير من الطوائف إلى اعتبار أن التوحيد الذي بعثت به الرسل هو توحيد الربوبية، وقد استلزم هذا المذهب القول بنفي توحيد الألوهية، ولهذا أسباب سيأتي الكلام عنها، قال ابن أبي العز في بيان أنواع التوحيد: «وأما الثاني: وهو توحيد الربوبية، كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية. وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]» [شرح الطحاوية ص ٢٥-٢٦].

إلا أن تقرير هذا الأمر قد يشكل، حيث يقال إذا كانوا في الجاهلية يقرون بهذا النوع من التوحيد –توحيد الربوبية– فلماذا عبدوا الأصنام، وقد أجاب جمع من العلماء عن هذا، قال البكري الشافعي في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١] إن قلت: إذا أقروا =

ـ وهذا التقسيم من الحقائق الشرعية المستمدة من كتاب الله تعالى، وليس اصطلاحياً أنشأه بعض العلماء، بل لا يؤمن بالتوحيد من لم يؤمن بهذه الأقسام الثلاثة المستمدة من نصوص الشرع، إذ التوحيد المطلوب شرعاً هو الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ومن لم يؤمن بهذه جميعها فليس موحداً.

ـ وهذا التقسيم يثبت لنا من وجهين:

الوجه الأول: الاستقراء والتتبع للنصوص: فقد ثبت بالتتبع والاستقراء للنصوص أن التوحيد الذي نزلت به الكتب، ودعت إليه الرسل، ينحصر في هذه الأقسام للتوحيد، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

الثاني: توحيده جل وعلا في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى لا إله إلا الله، وهي مركبة من نفي وإثبات، فمعنى النفي: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات.

ومعنى الإثبات: إفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص

= بذلك فكيف عبدوا الأصنام؟ قلت: كلهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام، عبادة الله والتقرب إليه. لكن في طرق مختلفة: ففرقة قالت: ليس لنا أهلية عبادة الله بلا واسطة؛ لعظمته فعبدناها لتقربنا إليه زلفى. وفرقة قالت: الملائكة ذوو وجاهة عند الله، فاتخذنا أصناماً على هيئة الملائكة لتقربنا إلى الله زلفى. وفرقة قالت: جعلنا الأصنام قبلةً لنا في العبادة؛ كما أن الكعبة قبلة في عبادته. وفرقة اعتقدت: أن لكل صنم شيطاناً موكلاً بأمر الله، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله، وإلا أصابه شيطانه بنكبة بأمر الله. (الانتصار لحزب الله الموحدين، ضمن كتاب: عقيدة التوحيد ١٧).

على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام، وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [صٓ: ٥].

النوع الثالث: توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته ا.هـ.

إذن هذه الأنواع ثابتة بالاستقراء، والاستقراء دليل يفيد القطع إذا كان تاماً، فهاهنا نحن استقرينا النصوص الشرعية كلها فلم نجد إلا هذه الأقسام الثلاثة وما يتعلق بها، مما يدل على أن هذه الأقسام قطعية، وهذه الأقسام تشكل بمجموعها جانب الإيمان بالله الذي نسميه التوحيد.

وأما ما يتعلق بتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام فهو راجع إلى اعتبار متعلق التوحيد، وتقسيمه إلى قسمين راجع إلى اعتبار ما يجب على الموحد.

الوجه الثاني: من أوجه إثبات تقسيم التوحيد: وجود هذا التقسيم في عبارات السلف، إما صراحةً وإما إشارةً وتلميحاً، وفيما يلي نقول لبعض أقوالهم الدالة على هذا المعنى:

١ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ [يوسف: ١٠٦] قال من إيمانهم إذا قيل لهم: من خلق السماء؟ ومن خلق الأرض والجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون.

وقال أيضاً في تفسير الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ﴾ [الزخرف: ٩] وهم مع ذلك يشركون به، ويعبدون غيره ويسجدون للأنداد دونه.

وقال مجاهد: في تفسير الآية السابقة: إيمانهم قولهم: الله خالقنا يرزقنا، ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره. وقد روي نحو هذا عن قتادة وعكرمة وابن جبير وعطاء والشعبي.

وجملة ما روي عن أئمة أهل العلم من السلف يدل على أنهم كانوا يقررون أنواع التوحيد في كلامهم، وقد روى الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره طائفةً من أقوالهم في بيان ذلك.

وعليه، فلما رأى علماء الأمة وأئمتها ما جرى من اختلاف الحقائق الشرعية للألفاظ والنصوص الشرعية، أرادوا أن يحافظوا على هذه الحقائق حسب ما كان يعرفه العرب في زمن الرسول ﷺ، وقبل دخول العجمة في لغتهم، فحرروها في كتبهم، وسجلوها في مصنفاتهم؛ حتى تبقى المصطلحات الشرعية على الجادة، فمن هذا المنطلق أظهروا أجزاء التوحيد للعامة؛ كي لا يفتروا، ولا ينسوا بمرور الزمان مدلولاته الشرعية.

ولذلك انتشر هذا التقسيم بعبارات مختلفة في مصنفات العلماء وأئمة السنة، كأبي حنيفة، وأبي يوسف، وابن جرير، وأبي جعفر الطحاوي، وابن بطة العكبري، والحافظ ابن منده، حتى وصلت إلى الإمام حبر الأمة، وشيخ الإسلام، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، فأكرمه الله وانتشر هذا الأمر بين طوائف الأمة وعلمائها على يديه، ومن ثم تلاميذه من بعده[1].

ـ العلاقة بين أنواع التوحيد:

تظهر أهمية بيان العلاقة بين أنواع التوحيد، حيث تدل على خطأ ما كان عليه أهل الجاهلية من إقرارهم بنوع من أنواع التوحيد ونفي الآخر، كما يظهر خطأ المتكلمين الذين جعلوا علمهم وعملهم متعلق بنوع دون الآخر.

وفي بيان هذه العلاقة يقول عثمان ضميرية: «إن توحيد الربوبية يستلزم ويقتضي

(١) وللتوسع في هذا الموضوع ينظر: كتاب القول السديد، الشرك في القديم والحديث، مدخل لدراسة التوحيد لعثمان ضميرية ٢٢١.

توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية هو مقتضى توحيد الربوبية، وكذلك توحيد الأسماء والصفات، فتوحيد الربوبية هو المقدمة لتوحيد الألوهية، والخطوة الأولى التي توصل إليه، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ – ٢٢].

فالله سبحانه وتعالى يستحق العبادة وحده؛ لأنه هو الخالق وحده، وبذلك يتم الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

وأما توحيد الألوهية، فهو متضمن لتوحيد الربوبية، فإن من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً، لا بد أن يكون قد اعتقد أنه هو ربه ومالكه الذي لا رب له غيره، ولا مالك له سواه.

وأما توحيد الأسماء والصفات؛ فإنه شامل للنوعين السابقين، فهو يقوم على إفراده سبحانه بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا تنبغي إلا له، ومن جملتها كونه رباً واحداً لا شريك له في ربوبيته، وكونه إلهاً واحداً لا شريك له في إلهيته، فاسم الرب لا ينصرف عند الإطلاق إلا إليه، وكذلك اسم الجلالة (الله) لا يطلق إلا عليه وحده، فهو صاحب الربوبية المطلقة الشاملة، وصاحب الألوهية على جميع خلقه[١].

* * *

(١) مدخل إلى دراسة التوحيد: ٢٢٣- ٢٢٤.

الشرك

تعريفه و أنواعه

ينقسم الشرك من حيث العموم إلى قسمين: شرك أكبر، وشرك أصغر، ومن العلماء من يقسمه إلى شرك أكبر، وشرك أصغر، وشرك خفي، والأقرب أن يقسم قسمين أكبر وأصغر، وأما الخفي فهو ملحق بهما.

ـ الشرك الأكبر:

قال الراغب الأصفهاني: «**وشرك الناس في الدين ضربان:**

أحدهما: الشرك العظيم، وهو: إثبات شريك لله تعالى. يقال: أشرك فلان بالله، وذلك أعظم كفر. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

فالشرك الأكبر: **هو تسوية المخلوق بالخالق فيما هو من خصائص الخالق.**

وقيل هو من التشريك: أي تشريك غير الله في العبادة.

فإذا كان التوحيد يقوم على اعتقاد التفرد، فإن الشرك يقوم على التسوية التي تنافي هذا التفرد، حيث يعتقد المشرك أن غير الله يساويه في أمر هو من خصائصه سبحانه، كالعبادة، أو الخلق، أو علم الغيب المطلق، ونحو ذلك مما تفرد الله به[1]، **ولا يلزم أن يساوي بين الرب جل وعلا وبين من أشركه معه في القصد والتعبد من كل وجه، بل يكفي أن يكون بوجه من الوجوه**[2].

---

(١) ينظر مدارج السالكين ١/ ٢٧٩.

(٢) الشرك بين القديم والحديث ١/ ١١٦، **ولما كان الشرك الأكبر متعلقاً بما اختص الله به سبحانه،** كان من المهم ذكر بعض هذه الخصائص، منها: =

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: «... فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب، لأن الله لا يغفره إلا بالتوبة منه... وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله، وإنما كان كذلك:

ـ لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم، إذ مضمونه: تنقص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به.

ـ ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر... وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته، والذل له، والانقياد لأمره.

ـ ولأنه تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الألوهية، من ملك

= ١ـ التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والتوكل عليه وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، ومن أقبح التشبيه: تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغني بالذات.

٢ـ ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم، والإجلال، والخشية، والدعاء، والرجاء، والإنابة، والتوبة، والتوكل، والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون له وحده، ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون لغيره، فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره، فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له، ولا مثيل له، ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله.

٣ـ ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب مع غاية الذل، وهذا تمام العبودية. فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبه به في خالص حقه.

٤ـ ومن خصائصه الإلهية: السجود، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به.

وهكذا التوكل والتوبة والحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً له، والذبح له، وحلق الرأس تعبداً إلى غير ذلك.

ويدخل كذلك في الباب تشبه المخلوق بالخالق، فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفاً ورجاءً والتجاءً واستعانةً، فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وألوهيته.

الضر والنفع والعطاء والمنع، الذي يوجب تعلق الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، وأنواع العبادة كلها بالله وحده، فمن علق ذلك بالمخلوق فقد شبهه بالخالق»[١].

ـ الشرك الأصغر [٢]:

قال الراغب الأصفهاني: «**والثاني: الشرك الصغير: وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرياء والنفاق**» [٣].

وقيل الشرك الأصغر هو: ما ورد في النصوص أنه شرك، وليس بشرك أكبر.

أي أنه لم يصل إلى حد الشرك الأكبر.

وقيل: كل ما كان وسيلةً إلى الشرك الأكبر، وليس بشرك أكبر.

وله أنواع:

ـ منها شرك الأسباب: وهو أن يجعل الشيء سبباً، ولم يجعله الله تعالى سبباً، لا شرعاً ولا قدراً، كلبس الحلقة والخيط للتداوي.

ـ ومنه شرك الألفاظ: كقول القائل: ما شاء الله وشئت.

ـ ومنه: تقديم هوى النفس على محبة الله[٤].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص٨٨.

(٢) ينظر: فتاوى ابن باز - ١/ ٤٦-٤٧، ٣/ ٢٨٩-٢٩٠ -، حاشية ابن القاسم على كتاب التوحيد ص١٥، ٥٢، تيسير العزيز الحميد ص ٢٥-٢٨، مدارج السالكين ١/ ٢٧٩ وما بعدها. **وقيل إنه لا يعرّف، وإنما يذكر بالأمثلة، وهذا ظاهر صنيع ابن القيم في المدارج، وسبب ذلك أن التعريف غير منضبط لكثرة إفراده وتنوعه.** ينظر: «الشرك في القديم والحديث ١/ ١٦٧».

(٣) مفردات غريب القرآن ص٤٥٢.

(٤) سُئل الشيخ ابن باز رحمه الله عن: حب الدنيا والتمتع فيها، هل يدخل في الشرك الأصغر؟
فأجاب: «قد يقع، لأن في الإنسان ضعفاً باتباع هواه، ويعده جمع من أهل العلم نوعاً من الشرك =

ـ ومنه: إرادة الدنيا بعمل الآخرة.

فضائل التوحيد[١]:

جعل الله تعالى توحيده سبيل النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، وجعل وصف الفلاح لمن وحده، ووصف الخسران والبوار لمن أخل بتوحيده، وقد ترتب على العمل بالتوحيد فضائل في الدنيا والآخرة، من هذه الفضائل:

١ـ أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوبتهما.

٢ـ كذلك يمنع من الخلود في النار، إذا كان في القلب منه مثقال حبة خردل.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، وقول النبي ﷺ: «**إن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**»[٢].

٣ـ أنه إذا كمل في القلب يمنع من دخول النار بالكلية، ومنه حديث السبعين.

٤ـ وأنه يحصل لصاحبه الهدى الكامل، والأمن التام في الدنيا والآخرة. ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

= الأصغر؛ لأنه نوع من الهوى، لكن الصحيح في هذا أنه لا يسمى بالشرك الأصغر إلا بالنقل، فما جاء به النقل يسمى الشرك الأصغر، وما لم يأت به النقل وهو من المحرم، فهو من باب المعاصي، أو من باب البدع، على حسب حاله». (الفوائد العلمية ٢/ ٣٥، وينظر طريق الوصول إلى العلم المأمول ٣٥-٣٦)

(١) مقاصد التوحيد للسعدي ص ١٥-١٧.

(٢) البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠]، ح٤٥٨١، مسلم كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، ح ٣٠٢.

٥ ـ ومنه أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه، وأن أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه(١).

٦ـ ومنها أن جميع الأعمال والأقوال متوقفة في قبولها وكمالها، وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣].

٧ـ ومنه أنه يسهل على العبد فعل الخير، وترك المنكرات، ويسليه عن المصيبات.

٨ـ أنه يحرر العبد من رق المخلوقين، والتعلق بهم، وخوفهم، ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي. ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقوله عن إبراهيم لما ألقي في النار: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

* * *

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب الحرص على الحديث، ح٩٩.

الكلام على كلمة التوحيد [١]

«...كلمة التوحيد هي الكلمة التي قامت بها الأرض والسمٰوات، وخُلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها نُصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام بها سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، فهي منشأ الخلق والأمر، والثواب والعقاب، وهي الحق الذي خُلقت له الخليقة، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة، وعليها أسست الملة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وهي حق الله على جميع العباد، فهي كلمة السلام، وعنها يُسأل الأولون والآخرون، فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين:

ـ ماذا كنتم تعبدون؟ ـ وماذا أجبتم المرسلين؟

فجواب الأولى: بتحقيق(لا إله إلا الله) معرفةً وإقراراً وعملاً، وجواب الثانية: بتحقيق (أن محمداً رسول الله) معرفةً وإقراراً وانقياداً وطاعة»[٢].

ولبيان معنى هذه الكلمة العظيمة لابد من توضيح مضامينها، ويكون هذا من خلال مقدمة مشتملة على:

ـ ألفاظ كلمة التوحيد.

---

(١) وتسمى الشهادة بكلمة التوحيد لأنها تشير إلى جوانب العقيدة ومسائلها، فإذا حصل الإيمان بمضمونها على وجه صحيح، استتبع ذلك -قطعاً- الإيمان بسائر العقائد... وإنما كانت العناية بذكر الوحدانية؛ لأنها كانت أهم مقاصد الرسل جميعاً، وهي وحدها التي كفرها أكثر الناس وهجروها. مدخل لدراسة العقيدة ص ١٠٦.

(٢) مقدمة زاد المعاد لابن القيم ١/ ٣٦-٣٧.

ـ إعراب كلمة التوحيد.

ـ المعنى الإجمالي لكلمة التوحيد.

أولًا: ألفاظ كلمة التوحيد:

«أشهد»: فعل مشتق من الشهادة، قال الراغب الأصفهـاني: «**الشهـود والشهادة: الحضور مع المشاهدة؛ إما بالبصر أو البصيرة،**

وشهدت، يقال على ضربين: أحدهما جار مجرى العلم، وبلفظه تقام الشهادة، ويقال: اشهد بكذا، ولا يرضى من الشاهد أن يقول: أعلم، بل يحتاج أن يقول أشهد...»[(١)]

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: «قوله (من شهد أن لا إله إلا الله) أي من تكلم بهذه الكلمة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ﴾ [محمد: ١٩] الآية وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

أما النطق بها من غير معرفة لمعناها، ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع.

وفي الحديث ما يدل على هذا، وهو قول: «مَنْ شَهِدَ»، إذ كيف يشهد وهو لا يعلم، ومجرد النطق بشيء لا يسمى شهادة به»[(٢)].

---

(١) مفردات غريب القرآن ص٤٦٥-٤٦٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص٥١، وينظر القول المفيد ١/ ٥٢، والحديث المشار إليه هو حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، ح٣٤٣٥، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، ح٤٦.

وهنا قد يصاب بعض الناس بالغفلة عن حقيقة التوحيد، وشرط النجاة، ويغترّ بكلمة يديرها على لسانه، دون أن يفقه معناها، يظنها مفتاحاً للجنة، بمجرد نطقها باللسان، غافلاً عن شروطها التي ينبغي أن تتحقق، ومقتضياتها التي ينبغي أن يعمل بها؛ لتكون مفتاحاً صالحاً لفتح أبواب الجنة الثمانية.

وشهادة التوحيد هذه، سبب دخول الجنة، والنجاة من النار، ومقتضٍ لذلك، ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه، وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع من الموانع،وهذا المعنى يؤيده واقع الناس، حيث إنهم لا يقبلون الشهادة إلا ممن علم بما شهد، فلا يقبلون من الجاهل، إذ كيف تقبل الشهادة بأعظم مشهود ممن يجهل معناها وما دلت عليه.

إذن فمعنى العلم مأخوذ من دلالة النصوص، ومن المعنى اللغوي لكلمة أشهد[1].

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق. وينظر: مدخل لدراسة العقيدة ص٢٦٣.

معنى «إله» وهو المعبود

وهو الذي تسكن إليه النفوس، وتستجير به، وتتجه إليه لشدة شوقها، فتعبده وتخضع له.

قال الراغب: «... **وإله جعلوه اسماً لكل معبود لهم، وأله فلان يألـُه إلاهةً: عبد يعبد عبادةً، وقيل تأله، فالإله على هذا هو المعبود.**

وإله حقه ألا يجمع، إذ لا معبود سواه، لكن العرب لاعتقادهم أن ههنا معبودات جمعوه فقالوا الآلهة»[1].

قال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى، في ذكر وصية نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام لبنيه: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، ويعني بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي شيء تعبدون؟ (مِنْ بَعْدِي) أي من بعد وفاتي ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾، يعني به: قال بنوه له: نعبد معبودك الذي تعبده، ومعبود آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي نخلص له العبادة ونوحد له الربوبية، فلا نشرك به شيئاً ولا نتخذ من دونه رباً»[2].

قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بابطين رحمه الله: «وأما الإله، فهو الذي تألهه القلوب بالمحبة، والخضوع، والخوف، والرجاء، وتوابع ذلك، من: الرغبة، والرهبة، والتوكل، والاستغاثة، والدعاء، والذبح...، وجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة؛ فهو إله بمعنى: مألوه؛ أي معبود، وأجمع أهل اللغة: أن هذا معنى الإله.

---

(١) مفردات غريب القرآن ص٨٢-٨٣.

(٢) ابن جرير، التفسير ص١/ ٦١٣.

قال الجوهري: ألَـه بالفتح إلهةً، أي عبد عبادةً، قال: ومنه قولنا الله، واصله إله، على فعال بمعنى مفعول، لأنه مألوه، بمعنى معبود...، قال: والتأليه التعبيد، والتأله:التنسك، والتعبد، وقال في القاموس: ألَـه، إلهةً وألوهةً، عبد عبادةً،... **وجميع العلماء من المفسرين وشراح الحديث والفقه وغيرهم يفسرون الإله بأنه: المعبود**»[(١)].

❊ ❊ ❊

---

(١) الدرر السنية ٢/ ٢٩٦-٢٩٧، وينظر تيسير العزيز الحميد ص٥٣-٥٩.

لفظ الجلالة «الله»[١]

علم على الإله الحق، المستحق وحده للعبادة، خالق كل شيء ومالكه وربه ومدبره، الذي له المثل الأعلى والأسماء الحسنى، المتصف بجميع أوصاف الكمال، وهو اسم خاص به سبحانه لا يسمى به غيره.

وهو مشتق من ألـه إلهة، فهو إله بمعنى مألوه؛ أي مقصود بالعبادة.

أما معنى اسم «الله»: فهو كما فسره ابن عباس رضي الله عنه، ورجحه ابن جرير وغيره: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

ثانياً: إعراب كلمة التوحيد[٢]:

- **لا**: نافية للجنس تعمل عمل إن.
- **إله**: اسمها مبني على الفتح في محل نصب.
- **إلا**: أداة حصر واستثناء.
- **الله**: مستثنى مرفوع بدل من موضع «لا إله».

وخبر لا النافية للجنس: محذوف تقديره حق.

الخلاف في هذه المسألة:

اختلف في هذه المسألة في موضعين، الأول: هل المستثنى وهو لفظ الجلالة داخل في المستثنى منه.

---

(١) شرح معنى الشهادتين ص١٢٠، تيسير العزيز الحميد ص ١٢-١٤.

(٢) الدرر السنية ٢/ ٢٥٦-٢٥٨، ٣٢٩، ١١/ ٢٦٠-٢٦١، شرح معنى الشهادتين ص١٢١-١٢٤.

والثاني: في تقدير خبر«لا» هل هو حق أو موجود.

أما الأول: فذهب أهل السنة إلى أن المستثنى غير داخل في المستثنى منه، وأن القول بدخوله يتضمن معنىً فاسداً، فكيف ينفى ثم يثبت؟!

قال ابن القيم رحمه الله: «بل هو مخرج من المنفي وحكمه، فلا يكون داخلاً في المنفي؛ إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل في الإسلام بقول لا إله إلا الله، لأنه لم يثبت الألوهية لله تعالى، وهذه أعظم كلمة، تضمنت نفي الألوهية عن سوى الله، وإثباتها له بوصف الاختصاص، فدلالتها على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا الله إله، ولا يستريب أحد في هذا البتة». ا.هـ كلامه رحمه الله.

ويؤيد هذا ما يلي:

١ـ أن النفي يناقض الإثبات، فاجتماع النفي والإثبات في جملة واحدة جمع بين النقيضين.

٢ـ أن المراد بكلمة التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وتخصيصه بها سبحانه، ولذلك جاء النفي للاسم والخبر الذي هو صفة، أي لا إله حق، لنفي استحقاق الألوهية عن غير الله وإثباتها بالتالي لله تعالى.

٣ـ أن نصوص القرآن تدل على هذا المعنى، فقد أخبر تعالى عن إبراهيم قوله لقومه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ﴾ [الزخرف: ٢٧]، فلا يجوز لمسلم أن يعتقد أن إبراهيم تبرأ من معبوده ثم أثبته.

أما الثاني: وهو تقدير الخبر:

فقيل إن الخبر هو موجود، أو في الوجود، والصحيح أن تقدير الخبر هو حق، والأول باطل لوجوه:

١ـ أن الله قد بيّن في القرآن أن هنالك آلهةً تعبد من دونه سبحانه.

٢ـ أن هذا جهل بدعوة الرسل ومخالف لها.

٣ـ أن هذا مخالف للأساليب الموجودة في النصوص التي تدل على تفرد الله بالوحدانية.

❊ ❊ ❊

قصة الشرك

وأول حدوثه في الأرض(١)

كان الناس من عهد آدم عليه السلام إلى عهد قوم نوح عليه السلام على التوحيد، فكانوا يعبدون الله ويتقربون إليه بما يحبه ويرضاه.

وكان في قوم نوح عليه السلام رجال صالحون يعبدون الله ويدعون إليه، ويعلمون الناس الخير، أحبهم الناس وتعلقوا بهم، فلما ماتوا وجد أتباعهم في نفوسهم من الحزن والأسى الشيء الكثير، فوجد الشيطان لنفسه مدخلاً يلبس من خلاله عليهم، فأوحى إليهم أن انصبوا في مجالسهم من التصاوير والتماثيل ما تذكركم بهم، فتعبدون الله كما كنتم في عهدهم.

فلما طال عليهم الأمد، وذهب العلم، وفشا الجهل والتقليد، جاء الشيطان إلى من بعدهم، فأوحى إليهم أن من كان قبلكم كانوا يعبدون هذه التماثيل ويتقربون إليها، فمنذ ذلك الوقت نشأت عبادة الأصنام في الأرض فأرسل الله رسله مبشرين ومنذرين.

روى البخاري في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله تعالى: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣]، قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان

(١) ينظر إغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٢٠٣، تيسير العزيز الحميد ص٢٤٥، فتح المجيد ص٢٤٧.

إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت[١].

وروى ابن جرير بإسناده عن محمد بن قيس: «أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا، قال أصحابهم: لو صورناهم كانوا أشوق منا إلى العبادة، فصوروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم»[٢]

فتبين أن مبدأ الشرك بالصالحين هو الغلو فيهم، كما أن سبب الشرك بالنجوم هو الغلو فيها، واعتقاد النحوس فيها والسعود، ونحو ذلك. وهذا هو الغالب على الفلاسفة ونحوهم، كما أن ذاك هو الغالب على عباد القبور، ونحوهم، وهو أصل عبادة الأصنام، فإنهم عظموا الأموات تعظيمًا مبتدعًا، فصوروا صورهم، وتبركوا بها، فآل الأمر إلى أن عبدت الصور ومن صورته، وهذا أول شرك حدث في الأرض[٣].

فوائد هذه القصة:

ـ أن الناس كانوا على التوحيد منذ زمن آدم إلى زمن قوم نوح عليهما السلام.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وَدًّا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ ح ٢٠٤٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٩/ ٩٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٢٥٩.

قال الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله: «وبالجملة، فالغلو أصل الشرك في الأولين والآخرين إلى يوم القيامة. وقد أمرنا الله تعالى بمحبة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغلو فيهم، فلا نرفعهم فوق منْزلتهم، ولا نحطهم منها لما يعلمه تعالى في ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم، فإن الشرك بهم غلو فيهم، وأنزلوهم منازل الإلهية، وعصوا أمرهم، وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم». تيسير العزيز الحميد ص ٢٩٠.

ـ أن الناس في زمن قوم نوح كانوا قد تعلقوا وغالوا بمحبة صالحيهم.

ـ أنهم اتخذوا وسائل غير مشروعة، مثل الصور والتماثيل.

ـ نسيان العلم وفشوّ الجهل؛ أي العلم الذي يميز فيه بين التوحيد والشرك، والعلم بمراد من صور تلك الصور.

ـ التقليد وأخذ الشرع من غير مصدره الصحيح.

الأساليب الدالة على تفرد الله تعالى بالألوهية واستحقاقه لها ووجوب إفراده بها [1]:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكلما كانت حاجة الناس إلى معرفة الشيء وذكره أشد وأكثر، كانت معرفتهم به وذكرهم له أعظم وأكثر، وكانت طرق معرفته أظهر وأكثر، وكانت الأسماء المعرفة له أكثر، وكانت على معانيه أدل، ولما كانت حاجة النفوس إلى معرفة ربها أعظم الحاجات كانت طرق معرفتهم له أعظم من طرق معرفة ما سواه، وكان ذكرهم لأسمائه أعظم من أسماء ما سواه، وله في كل لغة أسماء، وله في اللغة العربية أسماء كثيرة، والصواب الذي عليه جمهور العلماء أنها لا تنحصر في تسعة وتسعين كما في أحاديث أخر»[2]. ولما كان لتوحيد الألوهية هذه المكانة العظيمة فقد تعددت أساليب تقريره ومن أهم هذه الأساليب:

١ـ النفي أو النهي والإثبات، وأدلة هذا النوع تنقسم إلى قسمين:

أ) نفي وجود إله حق إلا الله تعالى بأسلوب النفي والاستثناء، مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:٢]، وهذه جزء من آية في عدة سور، ومنه قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٣٢] «بغير إلا».

(١) شرح معنى الشهادتين ص١٤.

(٢) طريق الوصول إلى العلم المأمول ص ٢٨.

ب) الأمر بإفراد الله بالعبادة بأسلوب النهي والاستثناء بـ (إلا)، ومنه قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣ - ١٤].

٢ـ تقديم ما حقه التأخير، مثل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

٣ـ الأمر بالعبادة مع النهي عن الشرك، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

٤ـ الأمر بالعبادة مع اشتراط الإخلاص لله، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وذلك أن من لوازم الإخلاص إفراد الله بالعبادة.

٥ـ تنزيه الله نفسه عن الشركاء، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

٦ـ عيب من يعبد أحداً من دون الله، ويتخذ معه شريكاً في العبادة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي﴾ [يونس: ١٨].

٧ـ الاستفهام الإنكاري عن وجود آلهة مع الله أو غير الله، يدل على تفرده سبحانه بالألوهية، واستحقاقه وحده للعبادة، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣].

وقوله: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

٨ـ وردت آيات تدل على وجوب إفراد الله بعبادات معينة، مثل: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]، وقوله: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٢][(١)]، وقوله: تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢]، وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقوله: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ ﴾ [يوسف: ٤٠].

* * *

(١) وفي أكثر من سورة.

المعنى الإجمالي لكلمة التوحيد

مما لا شك فيه أن من أهم الأمور التي يجب أن يعتني بها المسلم هي معرفة كلمة التوحيد؛ ذلك أن معرفة هذه الكلمة من حيث معناها يعين على العمل بها والقيام بحقوقها.

كان معنى هذه الكلمة أمراً شائعاً لا يختلف فيه اثنان، حتى أن كفار قريش كانوا يعلمون المعنى الذي دلت عليه هذه الكلمة، ولذلك ذكر الله تعالى عنهم قولهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [صٓ: ٥].

كما أخبر الله تعالى عنهم في كثير من الآيات أنهم لو سُئِلوا من خلقهم ومن خلق السموات والأرض، لقالوا: الله، كما دل على ذلك «حديث وفاة أبي طالب»[١]، عندما دخل عليه النبي ﷺ وعرض عليه أن يقول كلمة التوحيد، فأبى عليه ذلك أئمة الكفر ممن حضره، ولو كانت المسألة متعلقة بمجرد الكلمة، لقالها أبو طالب، ولما مانع أبو جهل وذووه، ولكنهم أدركوا أن المسألة أكبر من مجرد كلمة، وأنها تخالف ملة الكفر، ملة عبد المطلب.

وعلى ذلك، فقد تنوعت أساليب القرآن والسنة في الدلالة على هذا المعنى العظيم، الذي اشتملت عليه كلمة التوحيد، فمن هذه الأساليب:

- الأمر بالتوحيد، ومنها الدعوة إليه.
- ومنها: ذكر ما أعد الله لمن عمل به، أو التحذير من ترك العمل به.

---

(١) والحديث رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، ح ٣٨٨٤.

ـ ومنها: ذكر شبهات المشركين والرد عليهم.

ـ ومنها: ذكر أحوال الرسل مع أقوامهم.

وعلى كلٍ، فإن معرفة معنى هذه الكلمة أمر مستقر، دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، بل لم يخالف فيه حتى كفار قريش، فهم أصحاب لسان سوي، وفهمٍ عربي.

ولكن ترك ميراث النبوة ـ الذي هو أساس هذه الملة ولا صلاح لها بدونه ـ كان هو السبب الأول في عدم فهم مدلول هذه الكلمة.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: «**والأصل في ذلك الإعراض عن الهدى والنور الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ من الكتاب والحكمة، والاستغناء عن ذلك بمتابعة الآباء والأهواء والعادات المخالفة لذلك**»[(١)].

ولهذا انتشر في طوائف من هذه الأمة الفهم المنحرف لكلمة التوحيد، من ذلك تفسيرها بلا قادر على الاختراع إلا الله، أو لا خالق إلا الله[(٢)].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٤.

(٢) تقدمت الإشارة فيما مضى عند الكلام عن أسباب حصول الخلل في فهم التوحيد، وأن من أسباب ذلك دخول علم الكلام والمنطق، وهنا يمكن أن نرجع مظاهر قصورهم في ذلك إلى مظهرين:

الأول: خطؤهم في تصور التوحيد الذي أرسل الله لأجله الرسل.

الثاني: خطؤهم في تصور معنى الرب والإله، حيث جعلوا اللفظين مترادفين، ففسروا لأجل ذلك الإله بمعنى «القادر على الاختراع» أو «الصانع القادر المالك»، وقالوا الألوهية معناها: «الربوبية والصانعية والمالكية»، وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة عند الكلام على تفسير شهادة لا إله إلا الله، إن شاء الله.

وأما تقريرهم لمسألة الشرك، فيرى المتكلمون أن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، هو اعتقاد تفرد الله ووحدانيته في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا فرق عندهم بين الإله والرب، ولا بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، بل هما بمعنى واحد، بل يظنون أنهما وصفان مترادفان، فبهذا التزموا أنه لا شريك بالتقرب إلى غير الله بالعبادة، إلا إذا تضمن اعتقاد استحقاق المعبود للعبادة من دون الله، =

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: «... وأما عباد القبور فلم يعرفوا معنى هذه الكلمة، ولا عرفوا الألوهية المنفية عن غير الله، الثابتة له وحده لا شريك له، بل لم يعرفوا من معناه إلا ما أقر به المؤمن والكافر، واجتمع عليه الخلق كلهم، من أن معناها لا قادر على الاختراع، أو أن معناها الإله هو الغني عما سواه الفقير إليه كل ما عداه ونحو ذلك، فهذا حق، وهو من لوازم الألوهية، ولكن ليس هو المراد بمعنى لا إله إلا الله، فإن هذا القدر قد عرفه الكفار وأقروا به، ولم يدعوا في آلهتهم شيئاً من ذلك، بل يقرون بفقرهم وحاجتهم إلى الله، وإنما كانوا يعبدونهم على معنى أنهم وسائط وشفعاء عند الله في تحصيل المطالب ونجاح المآرب، وإلا فقد سلموا الخلق والملك والرزق

= وأن المعبود متفرد بالخلق والتدبير، ولهذا لم يكن عندهم شرك في الطلب والعبادة، إلا باعتقاد ما يضاد حقيقة الوحدانية لا بمجرد الشرك باتخاذ الواسطة.

وأما ما جاء من إطلاق الشرك فيما يتعلق بشرك الطلب والعبادة والتقرب، فلهم فيه تخريجان:

الأول: أن ذلك مقيد بشرك الاعتقاد لا بمجرد الإرادة والعمل.

الثاني: أن ذلك شرك، ولكنه شرك أصغر، فهو من المعاصي. الشرك في القديم والحديث ١/ ٣٦.

قال الشيخ عبدالله الغنيمان – بعد أن ذكر جملة من تعريفات العبادة عند المتكلمين-: «فهذه التعريفات للعبادة والشرك أخذت من الواقع الذي عاش فيه هؤلاء وأحزابهم، لا من الشرع الذي جاء به الرسول ﷺ، فأراد هؤلاء أن يكون الواقع الذي هم عليه متفقاً مع دين الإسلام، فجمعوا بين المتضادات، وقلبوا الحقائق، فجعلوا الشرك توحيداً، والتوحيد ضلالاً، وسلوكاً لطريق الخوارج الذين يكفرون المسلمين، واستبعدوا أن تكون هذه الأوضاع المنتشرة في سائر أنحاء البلاد الإسلامية هي التي كان يفعلها المشركون السابقون مع معبوداتهم، لذلك حاولوا تبرير أفعالهم، وجعلها على نهج الإسلام بأحاديث ملفقة أو موضوعة مكذوبة، أو حكايات لا قيمة لها في الشرع الإسلامي، وأقل ما يقال في تلك الأحاديث أنها ضعيفة لا يجوز أن يعتمد عليها في فرع من فروع الشرع، فكيف في أصل الأصول –العبادة– التي خلق الجن والأنس من أجلها، وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب لإقامتها وإخلاصها لله» أول واجب على المكلف ص٢٨.

والإحياء والإماتة والأمر كله لله وحده لا شريك له... فإن قيل: قد تبين معنى الإله والإلهية فما الجواب عن قول من قال بأن معنى الإله القادر على الاختراع ونحو هذه العبارة ؟ قيل الجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا قول مبتدع، لا يعرف أحد قاله من العلماء، ولا من أئمة اللغة، وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم فيكون هذا القول باطلاً.

الثاني: على تقدير تسليمه، فهو تفسير باللازم للإله الحق، فإن اللازم له أن يكون خالقاً قادراً على الاختراع، ومتى لم يكن كذلك فليس بإله حق وإن سمي إلهاً، وليس مراده أن من عرف أن الإله هو القادر على الاختراع فقد دخل في الإسلام، وأتى بتحقيق المرام من مفتاح دار السلام، فإن هذا لا يقوله أحد؛ لأنه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قدر أن بعض المتأخرين أراد ذلك فهو مخطئ، يرد عليه بالدلائل السمعية والعقلية»[1].

وهذا الكلام يوضح لنا واقع الأمة هذه الأيام، حيث انتشر تعظيم القبور والصالحين، وغيرهم من البشر، ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن أن يعطيه لغيره.

* * *

(١) تيسير العزيز الحميد ص٥٧-٥٩. ولمعرفة واقع الأمة ومدى ما وصلت إليه من انحراف في باب التوحيد. ينظر: كتاب دمعة على التوحيد.

المعنى الصحيح لكلمة التوحيد

بعد ما تقدم من بيان لألفاظ هذه الكلمة العظيمة ومعانيها، وإعرابها وتقدير الخبر فيها، وذكر للمعاني ألفاسدة التي قال بها أهل الكلام ومن وافقهم، نذكر المعنى الصحيح الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وما فسره السلف لهذه النصوص.

فـ «لا إله إلا الله»: أي لا معبود بحق إلا الله.وقد اشتملت هذه الكلمة على معنيين، النفي والإثبات[1]:

فدلالة النفي هي:

نفي المتشهد نفياً قاطعاً وحاسماً، أن يكون لأحد ممن صرفت له عبادة، أو اتخذ إلهاً سوى الله عز وجل، حق في الألوهية أو العبادة، وحكمه على تلك الآلهة والمعبودات من دون الله بأنها باطلة، وعلى عبادة صرفت لغير الله بأنها باطلة، وذلك في أي مكان أو زمان كان، وهذا هو أصل الكفر بالطاغوت، وهو براءة من الشرك وأهله.

ودلالة الإثبات هي:

استثناء الله عز وجل من الحكم الذي دل عليه النفي، والحكم بأنه هو الإله الحق، والمستحق وحده للعبادة، وأن كل عبادة صرفت له هي العبادة الحقة.

فيكون معنى «**أشهد أن لا إله إلا الله**» هو:

أقر إقراراً جازماً وأحكم حكماً قاطعاً على كل من زعم أنه إله، أو صرفت له عبادة سوى الله عز وجل بأنه باطل، وعبادته باطلة. وأحكم أن الله وحده هو الإله

---

(١) شرح معنى الشهادتين ص١٢٤.

الحق، المستحق وحده للعبادة. وهذا المعنى هو الذي يقصده أهل العلم عندما يفسرونها بقولهم«لا معبود بحق إلا الله».

وبذلك تتضح لنا الملامح العامة للأصول التي اشتملت عليها هذه الكلمة العظيمة؛ وهي ثلاثة أصول:

الأصل الأول: معرفة المشهود له بالشهادة (معرفة الله).

الأصل الثاني: إفراد الله بالعبادة.

الأصل الثالث: الكفر بما عُبد من دون الله (الكفر بالطاغوت).

* * *

أصول الشهادة

الأصل الأول: معرفة الله سبحانه وتعالى:

ـ أهمية معرفة الله:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وإنما الغرض هنا: أن الله سبحانه لما كان هو الأول، الذى خلق الكائنات، والآخر الذى إليه تصير الحادثات، فهو الأصل الجامع، فالعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكره أصل كل كلام وجامعه، والعمل له أصل كل عمل وجامعه، وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته.

ثم من العلم به، تتشعب أنواع العلوم، ومن عبادته وقصده تتشعب وجوه المقاصد الصالحة، والقلب بعبادته والاستعانة به معتصم مستمسك، قد لجأ إلى ركن وثيق، واعتصم بالدليل الهادي والبرهان الوثيق، فلا يزال إما في زيادة العلم والإيمان، وإما في السلامة عن الجهل والكفر»[(١)].

أولاً: معرفة المشهود له:

تنقسم المعرفة إلى قسمين: معرفة مجملة ومعرفة مفصلة.

ـ أما المعرفة المجملة فتتضح أهميتها من خلال أنها: «**لازمة لصحة النطق بالشهادة، ولكنها لا تورث صاحبها اليقين ولا تعصمه من الشبهات**».

قال الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي: «على أن من لم يحط بمعنى لا إله إلا الله على سبيل التحقيق، فهو بنفسه على خطر أن يكون مشركاً، أو يعرض له الشرك فيقبله

(١) مجموع الفتاوى ص٢/ ١٦.

وهو لا يشعر، فأولى به أن يبادر إلى تخليص نفسه»[١]

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: «قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله»[٢] أي من تكلم بهذه الكلمة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، باطناً وظاهراً، كما دل عليه قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا﴾ [محمد: ١٩]، وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، أما النطق بها من غير معرفة لمعناها، ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع، وفي الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله من شهد؛ إذ كيف يشهد وهو لا يعلم، ومجرد النطق بشيء لا يسمى شهادة به»[٣].

ونقل الشيخ سليمان عن الطيبي قوله: «فكيف يظن عاقل فضلاً عن عالم، أن التلفظ بلا إله إلا الله مع هذه الأمور تنفعهم، وهم إنما قالوها بألسنتهم وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم، ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين، ونطق أيضاً بشهادة أن محمداً رسول الله، ولم يعرف معنى الإله، ولا معنى الرسول، وصلى وصام وحج ولا يدري ما ذلك، إلا أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم، ولم يفعل شيئاً من الشرك، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه، وقد أفتى بذلك فقهاء المغرب كلهم في أول القرن الحادي عشر»[٤].

حد المعرفة المجملة:

هو أن يكون عند المسلم من العلم ما يستطيع أن يميز من خلاله بين الإله الحق سبحانه وغيره من الإلهة.

---

(١) كتاب العبادة ص ١٨٦.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٥١.

(٤) تيسير العزيز الحميد ص ٥٦.

وهذه المعرفة لها شرطان:

ـ أن تكون صحيحة.

ـ أن تكون كافية[(١)].

كيف تحصل هذه المعرفة؟

تحصل إذا فهم العبد بعض النصوص الشاملة للتعريف بالله، مثل:

ـ قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ـ وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ – ٤].

ـ وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وآيات التفرد بالملك والخلق والرزق والتدبير، مثل:

ـ قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

ـ وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

ـ وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وأما **المعرفة التفصيلية** فتحصل بدراسة مفصلة لأنواع التوحيد، ودراسة النصوص

(١) والمراد من الصحة والكفاية في المعرفة: أن يكون عند المسلم من العلم بالله – بأسمائه وصفاته وأفعاله – ما يعزز معرفته الفطرية، وأن يميز من خلاله بين الإله الحق وبين ما عبد من دونه.

الشاملة لعموم قدرة الله وملكه وسنته الجارية في خلقه.

ثانيًا: معرفة الشهادة:

وأما معنى الشهادة الذي ينبغي أن يعلمه المسلم فهو كالتالي:

المعرفة الإجمالية للشهادة: وهي«لا معبود بحق إلا الله».

وأما التفصيلية فمعناها: أقر إقراراً جازماً وأحكم حكماً قاطعاً على كل من زعم أنه إله أو صرفت له عبادة سوى الله أنه باطل وأن عبادته باطلة، وأحكم أن الله هو الإله الحق الذي يستحق العبادة وحده سبحانه وتعالى، وقد تقدم الكلام على معناها.

الأصل الثاني: إفراد الله بالعبادة:

ـ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ـ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

ـ وقال ﷺ: **(وحَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)**[1] متفق عليه.

والكلام على هذا الأصل يتضمن ثلاثة أمور:

ـ الأمر الأول: توضيح معنى هذا الأصل وبيان مراتبه.

ـ الأمر الثاني: بيان معنى العبادة.

ـ الأمر الثالث: الكلام على منزلة العبودية.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، ح ٢٨٥٦. مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، ح ٣٠.

الأمر الأول: توضيح معنى هذا الأصل وبيان مراتبه:

هذا الأصل في كلمة التوحيد مأخوذ من الاستثناء الذي دل عليه قولنا «إلا الله»، فإن الله نفى العبادة واستحقاقها عمن سواه وأثبتها سبحانه لنفسه. قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]. الآية، وقال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣]. وقال ﷺ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإذا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إلى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إلا الله وَأَنَّ محمداً رَسُولُ الله ..» الحديث، رواه البخاري[1].

«ذلك أن العبودية صفة لازمة للعبد، فلا بد أن يستشعر أنه عبد لله، وأن الله خلقه ويدبره، وأنه سيده ويصرّف أمره كيف يشاء، وأنه لا بد له أن يأتمر بأمر سيده، فهذه حقيقة العبودية.

إذن، فالأساس الأول في العبودية أن يستشعر أنه لا يملك شيئا؛ حياته لا يملكها، ووقته لا يملكه، وماله لا يملكه، فكل ذلك ملك سيده وهو الله تعالى.

فإذا علم العبد حاجته وافتقاره إلى الله، عليه أن يأخذ أوامره فيما يفعله أو لا يفعله، وكيف يفعله؛ كل ذلك من خطاب سيده وهو الله سبحانه وتعالى، ثم بعد ذلك عليه أن يطيع سيده في هذه الأوامر، فإن أبى كان من المنكرين فلا يكون طائعاً لربه»[2].

---

(١) كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، وترد في الفقراء حيث كانوا، ح ١٤٩٦، مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، ح٢٩.

(٢) ملخص من شرح معنى الشهادتين المسجل للشيخ الجربوع حفظه الله.

الأمر الثاني: بيان معنى العبادة [١]:

العبادة في اللغة: الذل والخضوع، يقال طريق معبد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام، وبعير معبد أي مذلل.

وأما العبادة في الشرع:

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «والعبادة تطلق على شيئين:

الأول: التعبد بمعنى التذلل لله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ محبةً وتعظيماً.

الثاني: المتعبد به؛ فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

مثال ذلك: الصلاة؛ ففعلها عبادة، وهو التعبد، ونفس الصلاة عبادة، وهو المتعبد به»[٢].

وقيل في تعريفها ـ وهو ما اشتهر عند الفقهاء ـ : **ما أمر به شرعاً من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي**.

هذه التعريفات كلها تدل على معان متقاربة، إلا أنها متفاوتة بين اختصار وتفصيل، وأما التعريف الذي نختاره في هذه الدراسة هو قولهم: «**ما أمر به شرعاً من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي**».

---

(١) فتاوى ابن باز ص ٧/ ٨٩، فتاوى ابن عثيمين ص١/ ٨٨، رسالة العبودية لشيخ الإسلام، الدرر السنية ٢/ ٢٨٩.

(٢) القول المفيد ١/ ٥. وقيل في تعريف العبادة: أنها امتثال الأمر، وقيل: الخضوع والذل لله بفعل أوامره وترك نواهيه.

على أني أضيف إلى التعريف «**أو كان في معناه**»، ليكون التعريف: «**ما أمر به شرعاً ـ أو كان في معناه ـ من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي**».

ـ شرح التعريف المختار:

ـ قولنا: «**ما أمر به شرعاً**» ما أمر: أي سواء كان أمر إيجاب أو استحباب.

شرعاً: أي في كتاب الله أو سنة النبي ﷺ، فإن الوحي هو مصدر العبادة.

ويدخل كذلك في هذا الأمر كل ما كان وسيلةً إليه، مثل: النوم والأكل ونحو ذلك، فقد تتحول إلى عبادة إذا كانت وسيلةً للعبادة، مثل أن ينام الإنسان ليقوى على قيام الليل، أو يتقوى على طلب العلم، وكذلك الأكل مثله، وهذا معنى قولنا «**أو كان في معناه**»، وهذه تأخذ حكم العبادات - المحضة - من حيث الأجر، لا من حيث الأمر.

ـ وقولنا: «**شرعاً**» يخرج ما بعده، وهي الأمور العرفية أو العقلية، التي تأخذ صورة العبادة وليست عبادة.

ـ قولنا: «**اطراد عرفي**» فيه إخراج لما اعتاده الناس، ولم يأمر به الشرع.

ـ قولنا: «**اقتضاء عقلي**»إخراج لما تقتضيه العقول وتستحسنه، ولم يأمر به الشرع[1].

ما تقدم في معنى العبادة يدل على أن لها خصائص لا بد أن تتوفر فيها، ويعد الإخلال بهذه الخصائص إخلالاً في العبادة نفسها، وإخلالاً بمضمونها، فمن هذه الخصائص:

١ـ أنها حق لله، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥]. أي نخصك

(١) وليس الكلام هنا عن مسألة التحسين والتقبيح العقليين، ويتضح هذا الأمر من خلال الكلام على خصائص العبادة.

وحدك بالعبادة والاستعانة، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، أي يخلصوا له العبادة.

٢ـ أن مصدرها الكتاب والسنة.

٣ـ أن مبناها على الإخلاص، وتوحيد القصد.

٤ـ لا بد في العبادة من الذل والخضوع لله مع تمام المحبة: قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقال أيضاً: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

وقال أيضاً: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣١]، وقال أيضاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

٥ـ أنها توقيفية، أي لا يمكن فيها الاجتهاد[1].

---

(١) والكلام على هذه الخصائص متعلق بالعبادة المحضة، وهي التي أشار إليها الشيخ ابن عثيمين رحمه الله، بأنها العبادة بمعنى التعبد.

وقد ذكر العلماء للعبادة أنواعاً، قال الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله: «اعلم أنَّ الله تعالى جعل العبادة له أنواعاً:

اعتقادية: وهي أساسُها، وذلك أن يعتقد أنَّه الربُّ الواحد الأحدُ الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، وأنَّه الذي لا شريك له، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنَّه لا معبود بحق غيره، وغير ذلك من لوازم الإلَهية.

ومنها لفظية: وهي النطق بكلمة التوحيد، فمَن اعتقد ما ذكر ولَم ينطق بها لم يحقن دمه ولا ماله، وكان كإبليس، فإنه يعتقد التوحيدَ، بل ويُقرُّ به كما أسلفنا عنه، إلا أنه لم يَمتثل أمر الله بالسجود فكفر، ومَن نطق بها ولَم يعتقد حقن ماله ودمه وحسابه على الله، وحكمُه حكم المنافقين.

وبدنية: كالقيام والركوع والسجود في الصلاة، ومنها الصوم وأفعال الحج والطواف. =

الأمر الثالث: الكلام على منزلة العبودية:

من أخص خصائص العبودية الافتقار المطلق إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبد كمالُه في حاجته إلى ربه وعبوديته وفقره وفاقته، فكلما كانت عبوديته أكمل كان أفضل، وصدور ما يحوجه إلى التوبة والاستغفار، مما يزيده عبوديةً وفقراً وتواضعاً»(١).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «**حقيقة الفقر: أن لا تكون لنفسك ولا يكون لها منك شيء، بحيث تكون كلك لله، وإذا كنت لنفسك فثمَّ ملك واستغناء مناف للفقر**».

وقال رحمه الله: «**الفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه**»(٢).

فالافتقار إلى الله تعالى أن يجرد العبد نفسه من كل حظوظها وأهوائها، ويقبل بكليته إلى ربه عز وجل متذللاً بين يديه، مستسلماً لأمره ونهيه، معلقاً قلبه بمحبته وطاعته، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].

ـ كيف يحقق العبد هذه المنزلة:

أولًا: إدراك عظمة الخالق وجبروته: فكلما كان العبد أعلم بالله تعالى وصفاته

= ومالية: كإخراج جزء من المال امتثالاً لِمَا أمر الله تعالى به، وأنواع الواجبات والمندوبات في الأموال والأبدان والأفعال والأقوال كثيرة، لكن هذه أمهاتها». تطهير الاعتقاد، ص ١٤٠-١٤١.

(١) طريق الوصول ص٨٦.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٤١١. بتصرف يسير.

وأسمائه، كان أعظم افتقاراً إليه، وتذللاً بين يديه، قال تعالى: ﴿ يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «**أصل الخشوع الحاصل في القلب إنما هو معرفة الله، ومعرفة عظمته وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف فهو له أخشع**».

ثانيًا: إدراك ضعف المخلوق وعجزه : يقول تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۞ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۞ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۞ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٥ – ١٠].

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله: «... **من عرف قدر نفسه وحقيقتها، وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق، في كل لحظة ونفس، وشدة وحاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه، في كل لحظة ونفس...**»[(١)].

من علامات الافتقار[(٢)]:

ـ **العلامة الأولى**: غاية الذل لله تعالى مع غاية الحب:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**كلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبوديةً ازداد له حباً وحريةً عما سواه، والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين: من جهة العبادة، ومن جهة الاستعانة والتوكل، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يُسر ولا يطيب ولا يكون مطمئناً إلا بعبادة ربه والإنابة إليه..**»[(٣)].

ـ **العلامة الثانية**: التعلق بالله وبمحبوباته:

ولذلك تجد صاحب هذه المنزلة في كل شأنه متعلقاً بالله، في بيته يعمل بما يرضي

(١) مدارج السالكين: ١/ ١٦٤.
(٢) الافتقار لب العبودية، بتصرف.
(٣) رسالة العبودية لشيخ الإسلام ص ٩٧. ط المكتب الإسلامي.

الله، في تجارته، وفي وظيفته، وفي كلامه، وفي جلوسه.

ـ **العلامة الثالثة**: مداومة الذكر والاستغفار:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ـ **العلامة الرابعة**: الوجل من عدم قبول العمل:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله صلى عليه وسلم عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون، قال: (**لا يا ابنة الصديق؛ ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**) رواه الترمذي[(١)].

ـ **العلامة الخامسة**: تعظيم الأمر والنهي:

ذلك أن تعظيم الأمر والنهي من تعظيم الآمر والناهي، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله: «**استقامة القلب بشيئين: أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتـقدم عنده على جميع المحاب، والأمر الثاني: تعظيم الأمر والنهي وهو ناشئ**

(١) الترمذي، ح ٣١٧٥.

عن تعظيم الآمر والناهي»[1].

الأصل الثالث: الكفر بالطاغوت

هذا الأصل من الأصول العظيمة التي اشتملت عليها كلمة التوحيد، وقد جاءت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تدل على هذا الأصل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾[الزمر: ١٧].

وقال النبي ﷺ: «**مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إلا الله وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ**

---

(١) الوابل الصيب ص٨، ويقول ابن القيم رحمه الله في بيان مشهد العبودية: «وهو الغاية التي شمر إليها السالكون، وأمها القاصدون، ولحظ إليها العاملون.

وهو مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلى لقائه، والابتهاج به، والفرح والسرور به، فتقر به عينه، ويسكن إليه قلبه، وتطمئن إليه جوارحه، ويستولي ذكره على لسان محبه وقلبه، فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية، وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات مكان حركاتها بالمعاصي، قد امتلأ قلبه من محبته، ولهج لسانه بذكره، وانقادت الجوارح لطاعته، فإن هذه الكسرة الخاصة، لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه.

ويحكى عن بعض العارفين، أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول: من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلى الله من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد، ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة، يعني بعد فعل الفرائض». مدارج السالكين ١/ ٤٧٥-٤٧٦.

وَحِسَابُهُ عَلَى الله» رواه مسلم[١].

ـ المراد بالكفر بالطاغوت:

الطاغوت في اللغة مشتق من طغا يطغو: إذا عدا وتجاوز قدره، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

قال الراغب في معنى الطاغوت: «طَغَوْتُ وطَغَيْتُ طُغَوَاناً وطُغْيَاناً، وأَطْغَاهُ كذا: حمله على الطُّغْيَان، وذلك تجاوز الحدّ في العصيان، قال تعالى: اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إنهُ طَغى...

والطَّاغُوتُ عبارةٌ عن كلِّ متعدٍّ، وكلِّ معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع... وقال: وعبارة عن كلّ متعدٍّ»[٢].

وفسر الطاغوت بالشيطان والساحر والكاهن والأصنام، وهذا تفسير الطاغوت ببعض أفراده.

قال عمر رضي الله عنه وكثير من المفسرين: الطاغوت الشيطان، قال ابن كثير رحمه الله: «**هو قول قويم جداً، فهو يشمل جميع ما عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها**»[٣]. ومقصوده رحمه الله أن الشيطان هو الذي يزين لهم ذلك.

وقال ابن جرير: «**والصواب عندي أنه كل ذي طغيان على الله فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو**

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ح ٣٧.
(٢) مفردات غريب القرآن ص ٥٢٠-٥٢١ مادة: طغى.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٨٣/ ١. ط. دار طيبة.

وثناً، أو صنماً، كائناً ما كان من شيء»[١].

وقال ابن القيم: «**كل ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع**»[٢].

وقال الشيخ عبد الله الجربوع حفظه الله ملخصاً الأقوال السابقة ما نصه: «**أنه كل مخلوق تجاوز حده، وادعى لنفسه أو لغيره شيئاً مما تفرد الله به، أو نُسب إليه ورضي، أو كان في حكم الراضي**».

فقوله: «**تجاوز حده وادعى**»، يخرج بذلك الأنبياء والملائكة وصالحي الإنس والجن الذين عُبدوا في حياتهم، أو بعد موتهم، أو أسند إليهم دون رضاهم شيء مما اختص الله به، والطاغوت في هذه الأصناف هو الشيطان كما تقدم في قول ابن كثير رحمه الله.

قوله: «**وادعى لنفسه أو لغيره**»، مثل أن يدعي علم الغيب، أو الحكم والتشريع، أو استحقاق العبادة، سواء كان هذا الادعاء لنفسه أو لغيره.

قوله: «**مما تفرد الله به**» وعليه فلا بد من معرفة خصائصه سبحانه، وما تفرد به مما لا يكون للمخلوق، وقد تقدم بعض ذلك مثل: علم الغيب، والخلق، والحكم، والتشريع، واستحقاق العبادة، ونحو ذلك مما اختص الله به سبحانه.

قوله: «**أو نسب إليه ورضي**» أن يقال مثلاً: يعلم الغيب، أو أنه ينفع أو يضر، ونحو ذلك، فيسكت على ذلك، ومنه الرجل الذي قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: (**أجعلتني لله نداً**)، ومنه كذلك ما حصل مع علي رضي الله عنه، فيمن ادعى فيه الألوهية حيث حرّقهم بالنار.

---

(١) جامع البيان ٤١٩/ ٥. ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) إعلام الموقعين ١/ ٤٠. ط. دار الكتب العلمية.

قوله: «**أو كان في حكم الراضي**»والمقصود بذلك الأشجار والأحجار ونحوها، مما صُرف له العبادة من دون الله تعالى[١].

ـ الإيمان بالطاغوت وعبادته[٢]:

الإيمان بالطاغوت: يكون بتصديقه فيما ادعاه من حق الله، وتصديق ما نسب إليه من ذلك، حتى لو لم يعمل به.

وعبادة الطاغوت: تكون بالعمل بموجب ذلك التصديق، بصرف شيء من العبادة له، كالصلاة، أو الدعاء، أو الرجاء، ونحو ذلك.

والكفر بالطاغوت يكون باعتقاد بطلان عبادة غير الله، وتكذيب ما يدعون، أو ينسب إليهم، من حق لله، ويدخل في ذلك بغض الطواغيت، وأتباعهم، ومللهم، وكراهتهم، والبراءة منهم، ومما يعبدون، وعداوتهم، ويلزم من ذلك بل هو من الأصول، محاربة من عُبد من دون الله، أو دعي إلى ذلك.

وقد بيّن الله تعالى أهمية الكفر بالطاغوت، وكيفيته، وممن يكون، في سياق واحد في سورة الممتحنة، فقال: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

فقوله في أول السياق: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وفي آخر السياق: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الممتحنة: ٦]، بيان لأهمية الأمر – أي الأمر بالتأسي– وتأكيد

(١) ينظر شرح معنى الشهادتين للشيخ الجربوع حفظه الله ص١٢٦-١٢٩.

(٢) شرح معنى الشهادتين ص١٢٩، تيسير العزيز الحميد ص٩٧، فتاوى ابن باز ص٢/ ٤٤.

له، وأنه من الأسس التي تقوم عليها الحنيفية، ملة إبراهيم عليه السلام، وأن هذا الأمر لازم لمن أراد أن يلقى الله، وهو راض عنه فيفوز بالجنة.

وفي قوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان أن البراءة تكون من الشرك وأهله، من الطواغيت، وأتباعهم، وأعمالهم، وكل خصائصهم، وأحوالهم الضالة.

وفيه كذلك بيان، أن على أهل الحق أن يجادلوا أهل الباطل، وأن يبينوا باطلهم، ويكشفوا شبههم، ويحذروا الناس منهم.

وفي قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ بيان لكيفية الكفر بالطاغوت.

وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ بيان لغاية الكفر بالطاغوت، وأنها مستمرة ما دام الكافر على كفره، لا حد لها إلا رجوعه عن باطله، وإيمانه بالله، الإيمان الشرعي القائم على التوحيد.

فالكفر بالطاغوت، والبراءة من الشرك وأهله، أساس هام للإيمان بالله، وخطوة مقدمة لتطهير القلب، وتهيئته لاستقبال الإيمان وعقائده المباركة.

وبهذا يظهر بطلان مزاعم دعاة التقريب بين الأديان، وأن البغض لا يزول إلا إذا آمنوا بالله تعالى، وأن ما هم عليه باطل ولو ادعوا الإيمان.

كما ننبه هنا على دور وسائل الإعلام في محاربة دعوة التوحيد، والعمل على إزالة هذه الفوارق الشرعية والإيمانية بين المسلمين وغيرهم من ملل الكفر[1].

---

(١) وهنا نختم هذا المبحث ببيان ما يتعلق بعقيدة الولاء والبراء، على النحو الآتي:

معنى الولاء والبراء:

يرجع معنى الولاء والبراء إلى: المحبة في الموالاة التي ينشأ عنها الموافقة والنصرة، وإلى معنى البغض في=

= البراء الذي ينشأ عنه المعاداة. حقيقة الولاء والبراء، لعصام السناني ص ٤٣.
فالولاء: من الولاية، وهو النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً.
والبراء: هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار. الولاء والبراء في الإسلام ص ٨٩-٩٠.

مكانة عقيدة الولاء والبراء:

أولاً: أنها من معنى شهادة «لا إله إلا الله»، فإن من معناها البراءة من كل ما يُعبد من دون الله من الآلهة والطواغيت ودعاتها، قال ابن رجب رحمه الله: «ومن تحقق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كل ما سوى الله محبةً وتعظيماً وتوكلاً».

ثانياً: أن الولاء والبراء أوثق عُرى الإيمان؛ كما قال ﷺ: «ثلاث من كُن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار». البخاري ٧٧، مسلم ٢٠٤.

قال شيخ الإسلام: «إن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضي أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله، ويأمر بما أمر به الله، وينهى عما نهى الله عنه، وأنك لا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله، ولا تسأل إلا الله، وهذه ملة إبراهيم، وهذا الإسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين» يُنظر: حقيقة الولاء والبراء للسناني ص ٦٨-٧٧.

صور من الولاء والبراء:

أولاً: دل الكتاب والسنة وإجماع المسلمين على أنه يجب على المسلمين أن يعادوا الكافرين من اليهود والنصارى وسائر المشركين، وأن يحذروا مودتهم واتخاذهم أولياء. فتاوى ابن باز ٢/ ١٧٨.

ثانياً: كيف نتعامل مع الشرائع السابقة في ظل الولاء والبراء:

«وليس معنى نسخ الشرائع السابقة أنها لا تحترم، أو أنه يجوز التنقص منها، ليس هذا المعنى هو المراد، وإنما المراد رفع ما قد يتوهمه بعض الناس أنه يسوغ اتباع شيء منها، أو أن من انتسب إليها من اليهود أو غيرهم يكون على هدى، بل هي شرائع منسوخة لا يجوز اتباع شيء منها، لو علمت على التحقيق، وسلمت من التغيير والتبديل، فكيف وقد جهل الكثير منها». فتاوى ابن باز ٢/ ١٨٨.

ثالثاً: مع قولنا باحترام الشرائع السابقة، إلا أن نقد هذه الشرائع المحرفة، وبيان نسخها وتحريفها، أمر واجب على المسلمين. فتاوى ابن باز ٣/ ٤٦. =

ـ شروط [لا إله إلا الله] [١]:

إن تحقيق معنى الشهادة: هو الإتيان بمدلول الشهادة علماً وعملاً، وإرادةً وقصدًا

= **رابعًا**: ليس معنى بغضهم وعداوتهم أن نظلمهم أو نتعدى عليهم إذا لم يكونوا محاربين، وإنما معناه أن نبغضهم في القلوب ونعاديهم، ولا يكونوا أصحاباً لنا. المصدر السابق ٥/ ٢٤٦.

خامسًا: كل فعل يفهم منه إعزاز الكافر وإكرامه فهو محرم لا يجوز، وعليه:

- لا يجوز مشاركتهم في حفلاتهم وأعراسهم.
- كما لا يجوز توديعهم واستقبالهم في سفرهم.
- ولا يجوز بدؤهم بالسلام، والترحيب بأهلاً وسهلاً، وما شابه ذلك.

أما مشاركتهم في أعيادهم الدينية فهو محرم؛ لما سبق في الضابط المتقدم، ولذات العيد، حيث يمثل شعيرة من شعائر الكفر. ينظر: فتاوى ابن عثيمين ٢/ ٣٠٣-٣٠٤.

مسألة وحدة الأديان في ظل عقيدة الولاء والبراء:

مسألة التمايز بين دين الإسلام وغيره ثابتة عبر مراحل التاريخ، وقد بين الله تعالى ذلك في كتابه في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١]، الآية. وقال تعالى:﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار».(مسلم). وفي الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله...» متفق عليه.

إذا تقرر هذا الأصل، علمنا بطلان دعوة وحدة الأديان والتي يسعى لها اليهود والنصارى ومن سار سيرهم ونحى منحاهم. وقد مرت هذه الدعوة بمراحل متعددة، وقد بين الله لنا في كتابه الكريم أصول هذه الدعوة والهدف منها: قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ﴾[البقرة: ١٠٩] الآية. وضعفت هذه الدعوة، وأخمدت نارها بنور الوحي، واستمر هذا الأمر حتى نهاية القرون الثلاثة الأولى. ثم تلقفها أصحاب وحدة الوجود، مما دفع كثيراً من أهل العلم للتصدي لهذه الدعوة ولمن يدعو بها. ثم أحيا هذه الدعوة «الماسونية»، وقد أوقعوا في حبالهم عدداً من العلماء والمفكرين فضلاً عن الساسة والقادة.

ينظر: فتاوى ابن عثيمين ٣٠/ ٢، الولاء والبراء في الإسلام للقحطاني.

(١) فتح المجيد ص١١٢، فتاوى ابن باز ص ٣/ ٤٩-٥٠، ٧/ ٥٨-٦٠.

ونيةً، وتخليص القلب مما يضاد هذا المعنى، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال ﷺ: «من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل»(١).

ويجمع هذا أن يقال لا يمكن تحقيق معنى شهادة لا إله إلا الله إلا باجتماع أمرين:

الأول: وجود شروطها.

والثاني: انتفاء موانعها المعبر عنها بنواقض الإيمان.

وقد دلت الأحاديث على هذين الأمرين، فمنها ما علق دخول الجنة بالإتيان بالشهادة، كحديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «من شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله – وفيه – إلا أدخله الله الجنة على ما كان من عمل».

ومنها: ما جاء بياناً لتحريم دخول النار على من أتى بالشهادة،كحديث معاذ رضي الله عنه: «ما من عبد يشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»(٢).

وشهادة التوحيد هذه سبب دخول الجنة، والنجاة من النار، ومقتضي لذلك، ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باجتماع شروطه وانتفاء موانعه، قال الحسن رحمه الله، وقد سئل عن أناس يقولون: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ؟! فقال: من قال لا إله

(١) تقدم تخريجه.

(٢) البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، ح ١٢٨، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، ح٣٢.

إلا الله، فأدى حقها وفرضها دخل الجنة»[١]، وهذا المعنى قد ورد في كثير من الأحاديث، ومنها استنبط العلماء شروط كلمة التوحيد، وهذه الشروط هي:

١ـ العلم بمعناها المنافي للجهل: ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، فجميع الآلهة التي يعبدها الناس سوى الله سبحانه كلها باطلة، فينبغي العمل بمعناها نفياً وإثباتاً، وقد دل على ذلك نصوص من الكتاب والسنة، منها قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقول النبي ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[٢].

٢ـ اليقين المنافي للشك: وهو كمال العلم بها المنافي للشك والريب، قال تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، وقوله ﷺ: «اشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»[٣]، فلا بد في حق قائلها أن يكون على يقين بأن الله سبحانه هو المعبود بالحق.

٣ـ الإخلاص: وهو تصفية العمل بصالح النية، وذلك بأن يخلص العبد لربه سبحانه، وهو الله عز وجل، جميع العبادات، فإذا صرف منها شيئاً لغير الله من نبي، أو ولي، أو ملك، أو صنم، أو جني، أو غيرها، فقد أشرك بالله، ونقض هذا الشرط، وهو شرط الإخلاص، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، أو نفسه»[٤].

---

(١) ترتيب الأمالي الخميسية للشجري، ح ٢١، ١/ ١٦، دار الكتب العلمية.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم عليه النار، ح٤٦.

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم عليه النار، ح ٤٧.

(٤) البخاري، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، ح٩٩.

٤ـ الصدق: أي الصدق المانع من النفاق، المنافي للكذب، قال تعالى: ﴿ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ١ – ٢]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[التوبة: ١١٩]، وقال ﷺ: «ما من أحد يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»[(١)]، ومعنى هذا أن يقولها وهو صادق في ذلك، يطابق قلبه لسانه ولسانه قلبه، فإن قالها باللسان فقط وقلبه لم يؤمن بمعناها فإنها لا تنفعه، ويكون بذلك كافراً كسائر المنافقين.

٥ـ المحبة: المحبة لهذه الكلمة ولما دلت عليه، ولأهلها العاملين بها، ويبغض ما ناقض ذلك، قال تعالى: «﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي الحديث: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما..»[(٢)].

٦ـ الانقياد لما دلت عليه من المعنى: ومعناها: أن يعبد الله وحده وينقاد لشريعته ويؤمن بها، ويعتقد بأنها الحق... فإن استكبر عن ذلك فإنه لا يكون مسلماً، كإبليس وأمثاله، قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥]، وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»– وفيه ضعف –[(٣)].

٧ـ القبول لما دلت عليه: ومعناه: أن يقبل ما دلت عليه من إخلاص العبادة لله وحده، وترك

---

(١) البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، ح١٢٨.

(٢) البخاري، كتاب الوحي، باب حلاوة الإيمان، ح ١٦، مسلم كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، ح ٦٧.

(٣) ابن أبي عاصم في السنة، ح١٥، وقال الألباني رحمه الله: إسناده ضعيف.

عبادة ما سواه، وأن يلتزم بذلك ظاهراً وباطناً، ويرضى به، قال تعالى: ﴿ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥].

٨ـ الكفر بما يعبد من دون الله: ومعناه: أن يتبرأ من عبادة غير الله ويعتقد أنها باطلة.

ـ ما المراد من معرفة هذه الشروط:

الواجب على جميع المسلمين أن يحققوا هذه الكلمة بمراعاة هذه الشروط، ومتى وجد المسلم معناها والاستقامة عليه، فهو مسلم حرام الدم والمال، **وإن لم يعرف تفاصيل هذه الشروط، لأن المقصود هو العلم بالحق والعمل به.**

❊ ❊ ❊

فصل

في الأعمال التي تنقض «لا إله إلا الله»

قال الشيخ ابن باز رحمه الله: «فمن أراد الدخول في الإسلام والاستقامة عليه والفوز بالجنة والنجاة من النار، وأن يكون من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام الموعودين بالجنة والكرامة، فإنه لا يتم له ذلك إلا بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فتحقيق الأولى وهي «لا إله إلا الله»بإفراد الله بالعبادة، وتخصيصه بها، والإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله من أمر الجنة، والنار، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وأما تحقيق الثانية وهي«شهادة أن محمداً رسول الله»، فبالإيمان به ﷺ، وأنه عبد الله ورسوله أرسله الله إلى الناس كافة... واتباع ما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام مع الإيمان بجميع الماضين من الرسل والأنبياء، ثم بعد ذلك الإيمان بشرائع الله التي شرعها لعباده، على يد رسوله محمدﷺ».

وقال رحمه الله: «... وكثير من الناس يظن أن قول: لا إله إلا الله، أو أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفيه ولو فعل ما فعل، وهذا من الجهل العظيم، فإنها ليست كلمات تقال، بل كلمات لها معنى لابد من تحقيقه بأن يقولها ويعمل بمقتضاها».

وقال رحمه الله: «... فلا إسلام ولا إيمان إلا بشهادة أن لا إله إلا الله قولاً وعملاً وعقيدةً...».

وقال رحمه الله: «... أما من نقضها بقـول أو عمل فإنها لا تنفعه ولو قالها ألف

مرة في الساعة الواحدة»[1].

ـ الأعمال التي تخالف كلمة التوحيد مخالفة كلية أو جزئية:

قال الشيخ ابن باز رحمه الله: «فالمخالفة قسمان: قسم يوجب الردة؛ وهي كل قول أو عمل أو اعتقاد يوقع صاحبه في الشرك الأكبر فهو ينافيها بالكلية».

من هذه الأعمال:

١. صرف العبادة لغير الله، مثل: دعاء الأموات، أو النذر للأولياء، أو الصالحين، أو طلب المدد منهم، أو الاستغاثة بهم، أو الاستعانة، أو الذبح لهم، ونحو ذلك.

٢. صرف حق من حقوق الله لغيره؛ مثل ادعاء معرفة الغيب، أو جلب النفع، أو دفع الضر، أو القدرة على الخلق والرزق، أو حق الحكم والتشريع.

٣. ادعاء النبوة، أو تصديق من يدعيها، ولو صدّق مع ذلك ببعثة النبي ﷺ.

٤. جحد ما علم من الدين بالضرورة؛ مثل: وجوب الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، بل لو جحد أمراً مسنوناً، مثل السواك.

٥. سب الله، أو النبي ﷺ،أو القرآن، أو الإسلام، أو الاستهزاء بشيء من ذلك.

٦. استحلال ما حرّم الله، مثل: الزنا أو الخمر.

---

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن باز رحمه الله ٤ / ١٤، ١٦، ٢٠، ٧/ ٦٠-٦١، وآثرت أن أنقل كلام الشيخ الإمام ابن باز حول هذا الموضوع المهم والشائك مع أن كثيراً من المتقدمين والمتأخرين قد كتبوا فيه، لأسباب: منها: مكانة الشيخ العلمية، وثانياً: أن كلام المتقدمين قد تحرف في أذهان بعض المتأخرين فعملوا على صرفه عن ظاهره.

فهذه أمثلة على الأعمال والأقوال والاعتقادات التي تنقض شهادة أن لا إله إلا الله.

ـ الأعمال التي لا تنقض هذه الكلمة، ولكن تنقص من توحيد المسلم وتضعفه:

١. ما كان من الشرك الأصغر، وضابط الشرك الأصغر: هو ما جاء في النصوص أنه شرك وليس بشرك أكبر، أو هو ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر وليس بشرك أكبر. مثل الحلف بغير الله؛ إذا لم يعظم المحلوف به كتعظيم الله، ومنه يسير الرياء، ومنه دعاء الله تعالى عند قبر رجل صالح.

٢. شرك الوسائل؛ وهو أن يتخذ شيئاً سبباً لم يجعله الله ورسوله سبباً، لا شرعاً ولا قدراً، مثل: اتخاذ الحلقة والخيط، وغير ذلك من الوسائل؛ لدفع الضر، أو جلب النفع – إذا اقتصر على أنها سبب، أما إذا اتخذها على أنها تنفع أو تضر بنفسها فهو شرك أكبر –.

٣. سائر المعاصي والذنوب، فهي تنقص التوحيد وتضعفه.

* * *

فصل
في الأسباب وأحكامها

للأسباب علاقة وثيقة بموضوع التوحيد، فلا يمكن دراسة التوحيد من غير تعرض للأسباب، بل إن شرك الأولين كان مبدأه من اتخاذ أسباب لم يأذن بها الله، كما مضى توضيحه في فوائد قصة الشرك.

ولتوضيح العلاقة بين باب الأسباب والتوحيد، أقول: تقدم معنا أن التوحيد من حيث هو: العلم بالله، واعتقاد تفرده، والقيام بحقه.

وهو أن يؤمن العبد بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لهذا الكون، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى تثبت له على وجه الكمال، وأنه هو المستحق للعبادة سبحانه وتعالى.

ـ فتوحيد الربوبية: هو توحيد الله بأفعاله، ومن أفعاله سبحانه الخلق والرزق والتدبير، فهو مالك النفع والضر.

ـ وتوحيد الألوهية: هو توحيد الله بأفعال المكلفين، ومن أفعالهم العبادة، من محبة، وتعظيم، وإنابة، وتوكل، وخوف، ورجاء، وغير ذلك.

كما تقدم معنا أن الشرك يقسم إلى قسمين: شرك أكبر، وشرك أصغر. فالشرك الأكبر هو تسوية المخلوق بالخالق فيما هو من خصائص الخالق سبحانه، وأما الشرك الأصغر فهو مراعاة غير الله في بعض حق الله، وأما السبب المراد هنا فهو ما يتوصل به إلى المقصود.

إذن فيمكن تلخيص العلاقة بين باب الأسباب والتوحيد بالآتي:

ـ أن السبب من حيث الأصل مطلب شرعي، وقد دل على ذلك كثير من النصوص الشرعية.

ـ أن السبب من حيث حكمه على قسمين؛ قسم شرعي، والمحذور فيه أن يعتمد صاحبه عليه دون النظر إلى مسببِهِ سبحانه ومقدرِهِ، وقسم غير شرعي؛ فإن في إثباته تعدياً على حق الله سبحانه.

ومن خلال النظر في أبواب التوحيد، نرى أن باب الأسباب يدخل في كثير منها؛ مثل باب الرقى والتمائم، وباب التداوي، وأبواب الدعاء؛ المشروع منها والممنوع، وغير ذلك من الأبواب.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي: «**والشرع مبناه على تكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات، والتعلق بالمخلوقين، وعلى تكميل عقولهم، بنبذ الخرافات والخزعبلات، والجد في الأمور النافعة المرقية للعقول، المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها دينها ودنيويها**»[(١)].

قال الشيخ صالح آل الشيخ: «أما وجه كون لبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه شركاً أصغر: فإن من لبسها فقد تعلق قلبه بها، وجعلها تدفع وتنفع، أو جعلها تؤثر في رفع الضرر عنه، أو في جلب المنافع له، وهذا إنما يستقل به الله جل وعلا وحده؛ إذ هو وحده النافع الضار، وهو سبحانه وتعالى الذي يفيض بالرحمة، ويفيض بالخير أو يمسك ذلك. وأما الأسباب التي تكون سبباً لمسبباتها، فهذه لا بد أن يكون مأذوناً بها في الشرع»[(٢)].

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد، ص٤١.

(٢) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ص٩٥.

ـ أقسام الناس في الأسباب من حيث الجملة:

الناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من أنكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة الله، الجبرية والأشعرية، ومن مظاهر هذا الإنكار قولهم أن الله يفعل عند الأسباب لا بها.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب، حيث يجعلون ما ليس بسبب سبباً، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

الثالث: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبته الله سبحانه ورسوله ﷺ، سواء كان شرعياً أو كونياً، ولا شك أن هؤلاء هم الذين آمنوا بالله إيماناً حقيقياً، وآمنوا بحكمته، حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، وهذا من تمام الحكمة[١].

قال شيخ الإسلام: «والذي عليه السلف والأئمة والفقهاء والجمهور وكثير من أهل الكلام، إثبات الأسباب، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، مع دلالة الحس والعقل»[٢].

قال الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله: «واعلم أن الحديث - حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب[٣] - لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه الجهلة، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه، حتى الحيوان البهيم، بل نفس التوكل مباشرةً لأعظم الأسباب، كما قال

---

(١) ينظر: القول المفيد ١/ ١٥٥.

(٢) جامع الرسائل ١/ ٨٧-٨٩.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو، ح٥٧٠٥، مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلين الجنة بغير حساب ولا عذاب، ح ٣٦٧.

تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها، والأمر بالتداوي وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً، وإن تعطيلها يقدح بمباشرته في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة ويضعفه، من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى من التوكل»[(١)].

ـ ضوابط الأخذ بالأسباب:

قال شيخ الإسلام: «لكن ينبغي أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور: أحدها: أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب بل لا بد معه من أسباب أخر، ومع هذا فلها موانع. فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود، وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله».

قال الشيخ السعدي: «على العبد أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء: إن شاء أبقى سببيتها جارية على مقتضى حكمته؛ ليقوم بها العباد، ويعرفوا بذلك تمام حكمته، حيث ربط المسببات بأسبابها، والمعلولات بعللها، وإن شاء غيرها كيف يشاء؛ لئلا يعتمد عليها العباد، وليعلموا كمال قدرته، وأن التصرف المطلق، والإرادة المطلقة لله وحده، فهذا هو الواجب على العبد في نظره وعمله بجميع الأسباب»[(٢)].

---

(١) زاد المعاد ٤/ ١٤، ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) والحكمة في تخلف المُسَبَّبِ عنه مع قيام السبب هي:

أ ـ عدم الالتفات إلى الأسباب، فتلتفت القلوب عن الله فتتعلق بهذا السبب.

ب ـ معرفة قدرة الله، وأن له التصرف المطلق وحده لا شريك له.

«الثاني: لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم، أو يخالف الشرع كان مبطلاً، مثل: من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء».

وقال الشيخ السعدي: «أن لا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً».

«الثالث: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سبباً إلا أن تكون مشروعة؛ فإن العبادات مبناها على التوقيف؛ فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره- وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه- وكذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة، فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان فلا يحل له ذلك».

الرابع: أن لا يعتمد عليها العبد، بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها[1].

ـ كيف يعرف الشيء بأنه سبب:

طريقة العلم بأن الشيء سبب:

إما عن طريق الشرع، وذلك كالعسل ﴿ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل: ٦٩]، وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الإسراء: ٨٢].

وإما عن طريق القدر، كما إذا جربنا هذا الشيء فوجدناه نافعاً في هذا الألم أو المرض، ولكن لا بد أن يكون أثره ظاهراً مباشراً[1].

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى ١/ ١٠٤، القول السديد ص٤١.

قال الشيخ صالح آل الشيخ: «والقاعدة في هذا الباب: أن إثبات الأسباب المؤثرة وكون الشيء سبباً، لا يجوز إلا من جهة الشرع، فلا يجوز إثبات سبب إلا أن يكون سبباً شرعياً، أو أن يكون سبباً قد ثبت بالتجربة الواقعة أنه يؤثر أثراً ظاهراً لا خفياً»(٢).

ـ توفيق بين الأحاديث الواردة في أحكام أهل لا إله إلا الله في دار الآخرة:

قد سبق ذكر بعض الأحاديث في فضل هذه الكلمة، ثم هناك أحاديث وردت في أحكام أهل لا إله إلا الله في دار الآخرة، إذا نظر فيها للوهلة الأولى يرى أن فيها تعارض، وليس الأمر كذلك، وقد وقعت بعض الفرق في انحرافات بسبب عدم الفهم الصحيح لهذه الأحاديث، وسلوك مسالك خاطئة في التعامل معها.

يأتي هذا المبحث لمعالجة الإشكال الوارد على أحاديث هذا الباب، ونقرر فيه الحكم على طريقة أهل السنة والجماعة، وعليه فلابد من تقرير أصول وقواعد تضبط أحكام هذا الباب:

١ـ أن الأدلة الشرعية الصحيحة لا تتعارض، سواء كانت سمعيةً أو عقليةً، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

٢ـ إذا أثبت شيء في الكتاب والسنة ونفي، فالمثبت غير المنفي، وسيأتي مزيد توضيح لهذا الضابط.

٣ـ من اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادتين يدخل الجنة، ولا يدخل النار، فهو

(١) ينظر: القول المفيد ١/ ١٥٥.

(٢) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ص٩٤.

ضال، مخالف للكتاب والسنة والإجماع، وإنما يستحق دخول الجنة، والنجاة من النار مع الشهادتين، بالقيام بالواجبات، وترك المحرمات.

٤ـ أن الأحكام التي تضمنتها أحاديث الشهادتين – فيما يتعلق بمن مات على التوحيد– كغيرها من الأحكام قد تتخلف بفوات شرط، أو انتفاء مانع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وردت نصوص كثيرة في الوعد بالجنة، والنجاة من النار، على أعمال لا تكفي وحدها في ذلك بالإجماع، ووردت أيضاً نصوص في الوعيد على أعمال بالخلود في النار، أو تحريم دخول الجنة، وهي لا تخرج من الإسلام بإجماع السلف، فأصح الأقوال فيها وأحسنها ما فيه تصديق للنصوص كلها، وهي أنها من باب الموجبات والأسباب التي لا بد فيها من وجود الشروط وانتفاء الموانع، وبهذا يزول الإشكال وينتفي التعارض بين النصوص الصحيحة.

٥ـ اتفق أهل السنة على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ابتداءً، أو مآلاً، وإن من مات على الشرك أو الكفر دخل النار.

٦ـ اتفق أهل السنة على عدم كفر مرتكب الكبيرة، وعدم خروجه من الإسلام، ما لم يكن مستحلاً.

٧ـ اتفقوا على أن مرتكب الكبيرة، إن مات ولم يتب فأمره إلى الله تعالى، إن شاء عذبه ثم أدخله الجنة، وإن شاء أدخله الجنة ابتداءً.

٨ـ أن المعاصي والكبائر تنقص الإيمان ولكنها لا تهدمه، وقد دل على ذلك الكثير من النصوص المفرقة بين الكفر والمعاصي، ونصوص كثيرة ورد فيها تسمية العاصي باسم الإسلام والإيمان.

٩ـ كل ذنب ما عدا الشرك الأكبر فصاحبه تحت المغفرة، واختلفوا – أي أهل السنة– في الشرك الأصغر هل يغفر أو لا؟على قولين.

ـ إن هذه الأحاديث ـ في الجملة ـ تنقسم خمسة أقسام:

القسم الأول: الأحاديث التي فيها ذكر تحريم دخول النار على من قال لا إله إلا الله، ومن أمثلة هذا القسم:

١ـ حديث عبادة بن الصامت أنه قال عند موته: سمعت رسول الله يقول: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إلا الله وَأَنَّ محمداً رَسُولُ الله حَرَّمَ الله عَلَيْهِ النَّار» رواه مسلم(١).

٢ـ عن عتبان بن مالك عن النبي ﷺ قال: «إن اللهَّ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إلا الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله » متفق عليه(٢).

٣ـ عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أن لاَ إِلَهَ إلا الله وَأَنَّ محمداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إلا حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ» متفق عليه(٣).

القسم الثاني: الأحاديث التي فيها إخبار عن دخول الجنة لمن قال هذه الكلمة.

ومن أمثلة هذا القسم:

١ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله لاَ يَلْقَى اللهَّ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إلا دَخَلَ الْجَنَّةَ» رواه مسلم(٤).

٢ـ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لاَ إِلَهَ إلا اللهَّ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ، إلا دَخَلَ الْجَنَّةَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» متفق عليه(١).

---

(١) كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة، وحرم على النار، ح ٤٧.

(٢) البخاري، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، ح ٤٢٥، مسلم، كتاب الإيمان، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، ح٤٤.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

٣ـ عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَان آخِرَ كَلامِهِ لاَ إله إلا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ» رواه أبو داود ـ صحيح[٢].

القسم الثالث: الأحاديث التي فيها إخبار عن دخول بعض أهل التوحيد النار بسبب ارتكابهم الكبائر، ومن أمثلة هذا القسم:

١ـ حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «إن الله تعالى يقول: وعزتي وجلالي لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله»، وفيه: «إن الله حرّم على النار أن تأكل مواضع السجود من بني آدم» متفق عليه[٣].

٢ـ عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه ما يزن بُرَّه (يعني حبة قمح)» متفق عليه[٤].

القسم الرابع: الأحاديث التي فيها ذكر تحريم دخول الجنة لبعض الموحدين بسبب ارتكابهم الكبائر، ومن أمثلة هذا القسم:

١ـ «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام» متفق عليه[٥].

٢ـ «لا يدخل الجنة قتات» يعني نمام، متفق عليه[١].

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب في الجنائز، ح ١٢٣٧،مسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ح ١٥٠.

(٢) كتاب الجنائز، باب في التلقين، ح ٣١١، وصححه الألباني.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، ح٤، مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ح٣٢٥.

(٥) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، ح٤٣٢٦، مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه، ح ١١٥.

٣ـ «لا يدخل الجنة قاطع» متفق عليه[٢].

القسم الخامس: النصوص التي فيها الإخبار بخلود بعض أهل الكبائر في النار، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا ﴾ [النساء: ٩٣]، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنَ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» متفق عليه[٣].

ـ الجمع بين الأحاديث:

هذه الخمسة من أنواع الأحاديث في حكم أهل لا إله إلا الله ترجع إلى قسمين: الأول: أحاديث الوعد، والثاني: أحاديث الوعيد. وطريقة أهل السنة في فهم هذه النصوص هي الجمع بين أحاديث الوعد وأحاديث الوعيد –هذه هي الطريق الصحيحة– أي أنهم لا يقررون الحكم إلا بمجموع الأدلة، بخلاف أهل الزيغ فإنهم أخذوا طرفاً من النصوص، وتركوا طرفاً آخر، وهذا –أي إهمال بعض النصوص وإعمال بعضها– سبب الزلل والضلال.

ومن لم يجمع بين النصوص يزلّ في هذا الباب، وقد نشأ مذهبان منحرفان في هذا الباب:

المذهب الأول: الوعدية وهم المرجئة: سمُوا بالوعدية؛ لأن هذا المذهب أخذ

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، ح٦٠٥٦، مسلم كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، ح ١٦٩.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، ح ٥٩٨٤، مسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطعها، ح٢٥٥٦.

(٣) البخاري، كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به، وما يخاف منه، والخبيث، ح٥٧٧٨، مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، ح١٠٩.

أحاديث الوعد: (القسم الأول والثاني) وتركوا أحاديث الوعيد: (القسم الثالث والرابع والخامس)، فهم يقررون بأحاديث الوعد بأن من يقول لا إله إلا الله فهو في الجنة وحرِّم على النار، ولو ارتكب الكبائر (فالكبائر لا تؤثر في الإيمان عندهم، أي أن المعاصي لا تضر مع الإيمان)، فباطلهم من جهة إهمال أحاديث الوعيد، وتغليب أحاديث الوعد، وهذا يؤدي إلى تكذيب بعض أخبار النبي ﷺ، وكفى بهذا إثماً.

المذهب الثاني: الوعيدية وهم الخوارج والمعتزلة: هذا المذهب يأخذ أحاديث الوعيد ويترك أحاديث الوعد –عكس المذهب الأول، فيقررون أن من ارتكب الكبائر، من أهل لا إله إلا الله، فإنه مخلّد في النار، ولا حظ له من أحاديث الوعد، وهم كسابقيهم فإن مذهبهم منطوٍ على تكذيب بعض الأحاديث.

وأهل السنة وسط بين هؤلاء وهؤلاء، لا غلو ولا جفاء، لا تفريط ولا إفراط، فهم يؤمنون بأحاديث الوعد وأحاديث الوعيد، فكلها تخرج من مشكاة واحدة، يصدق بعضها بعضاً.

ـ الجمع بين أحاديث القسمين الأول والثالث:

أما أحاديث القسم الأول، فهي تفيد بأن قائل هذه الكلمة يحرّم على النار، وأحاديث القسم الثالث، فيها بيان أن بعض من قالها يدخل النار، فكان بين هذين القسمين تعارض، والجواب عن ذلك يتضح من خلال تقرير ما يلي:

أولاً: القاعدة المتقدمة، وهي أن ما ورد في النصوص إثباته ونفيه، فإن المثبت غير المنفي، كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

ثانياً: أن أحكام دخول الجنة أو النار، كسائر الأحكام المتعلقة بالأوصاف – كالصلاح أو النفاق أو الكفر– لا تنطبق على الأشخاص، ولا تتنزل عليهم إلا بتحقق

الشروط، وانتفاء الموانع.

فالأحاديث المتعلقة بدخول الجنة تحمل على أشخاص لهم أوصاف معينة – وهي مبثوثة في الكتاب والسنة– كما أن الأحاديث المتعلقة بدخول النار، تحمل كذلك على أشخاص لهم أوصاف معينة أوجبت لهم ذلك.

ثالثاً:يظهر من خلال طرح السؤال التالي: هل الذي أخبر النبي ﷺ أن النار تحرّم عليه، هو نفس الذي أخبر النبي ﷺ بأنه يدخل النار؟؟

فإذا أجبت بـ«نعم» سيحصل التعارض، فالجواب «لا»، وحينئذ يحصل الجمع بين نوعيّ الأحاديث، وهذا تقدم تقريره في القواعد.

القاعدة تقول: «إذا أثبت شيء في الكتاب والسنة ونفي، فالمثبت غير المنفي»، والأمثال لهذه القاعدة كثيرة، ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]. قوله: «مَا رَمَيْتَ» هذا نفي الرمي، وقوله: «إِذْ رَمَيْتَ» إثبات الرمي، ولكن الرمي المثبت غير الرمي المنفي، أما المثبت: فهو فعل النبي ﷺإذ أخذ التراب، ورمى به على الكفار، والمنفي: إصابة التراب لأعين الكفار.

فإذا عرفنا هذه القاعدة نستطيع فهم الأحاديث التي ببن أيدينا، وهي القسم الأول والقسم الثالث، فالذي أخبر النبي ﷺ أنه يدخل الجنة، وتحرّم عليه النار: هم الذين يقولون هذه الكلمة محققين شروطها وواجباتها ومقتضياتها، وأما الذي ذكر في القسم الثالث: فهم الذين عندهم هذه الكلمة، ولكن ينقصونها بأنواع الذنوب والمعاصي.

ولذلك قال ابن القيم رحمه الله ما معناه: إن في الدنيا ثلاثة أنهار، إذا تطهر فيها الإنسان كفته، وهذه الثلاثة هي: الحسنات الماحية، التوبة النصوح، والمصائب المُكفرة، وإن لم يطهر في أنهار الدنيا، فإنه يطهر في نهر جهنم.

ومما يدل على ذلك حديث«السبعين ألفا» الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، حيث يدل على أن بعض قائلي هذه الكلمة، من لا يدخل الجنة إلا بالحساب أو بالعذاب، وذلك لعدم تحقيق هذه الكلمة على وجه الكمال، والله تعالى أعلم.

ـ الجمع بين أحاديث القسمين الثاني والرابع:

أما أحاديث القسم الثاني فهي تدل على أن قائل هذه الكلمة يدخل الجنة.

ـ الجواب:

إن أحاديث القسم الثاني، جاءت مطلقة بدخول الجنة، فتشمل من دخلها ابتداءً، ومن دخلها بعد ذلك، وهذا الإطلاق يوافق الأصل الذي قدمناه، وقد انعقد عليه الإجماع – إجماع أهل السنة – أن من مات على التوحيد فإنه من أهل الجنة ابتداءً أو مآلاً.

ولكن ينبغي التنبه، إلى أن أهل هذه الكلمة يتفاوتون في الدخول إلى الجنة، فمنهم من يدخلها دخولاً أولياً بدون حساب ولا عذاب، ومنهم من يدخلها بعد الحساب أو العذاب.

أما أحاديث القسم الرابع، ففيها بيان أن بعض الموحدين تحرُم عليه الجنة بسبب ارتكابهم الكبائر، وغاية الأمر أنهم يتأخرون في الدخول، وقد تقدم أنهم تحت مشيئة الله تعالى.

وأما القسم الخامس: فيقال فيه ما قيل في القسم الرابع، ويضاف كذلك: أن أصحاب هذا القسم لا يخلو حالهم من أمرين:

الأول: أن يكونوا ممن نطق بالشهادة ودخل في الإسلام أو لا ؟ فإن كان الأول: فيقال فيهم ما يقال في غيرهم من أهل المعاصي والكبائر، ممن شاب إيمانهم ما شابه من

الذنوب والمعاصي، حتى أضعفته وأوهنته. كما أنهم يدخلون في عموم أحاديث القسم الثاني.

وإن كان الثاني: فلا كلام؛ لأنهم غير مسلمين أصلاً.

- ولكن يبقى الجواب عن معنى التخليد الوارد في الآية والحديث:

قال الشيخ ابن عثيمين:ولكن يشكل على منهج أهل السنة ذكر الخلود في النار، حيث رتب على القتل، والقتل ليس بكفر، ولا خلود في النار عند أهل السنة إلا بالكفر.وأجيب عن ذلك بعدة أوجه:

الوجه الأول: أن هذا في الكافر إذا قتل المؤمن، لكن هذا القول ليس بشيء، لأن الكافر جزاؤه جهنم خالداً فيها، وإن لم يقتل المؤمن: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٤ – ٦٥].

الوجه الثاني: أن هذا فيمن استحل القتل، لأن الذي يستحل قتل المؤمن كافر، وعجب الإمام أحمد من هذا الجواب، قال: كيف هذا ؟! إذا استحل قتله، فهو كافر وإن لم يقتله، وهو مخلد في النار، وإن لم يقتله، ولا يستقيم هذا الجواب أيضاً.

الوجه الثالث: أن هذه الجملة على تقدير شرط، أي: فجزاؤه جهنم خالداً فيها إن جازاه.وفي هذا نظر، أي فائدة في قوله: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]، ما دام المعنى إن جازاه؟! فنحن الآن نسأل: إذا جازاه، فهل هذا جزاؤه؟ فإذا قيل: نعم، فمعناه أنه صار خالداً في النار، فتعود المشكلة مرة أخرى، ولا نتخلص.

فهذه ثلاثة أجوبة لا تسلم من الاعتراض.

الوجه الرابع: أن هذا سبب، ولكن إذا وجد مانع، لم ينفذ السبب، كما نقول: القرابة سبب للإرث، فإذا كان القريب رقيقاً، لم يرث، لوجود المانع وهو الرق.

ولكن يرد علينا الإشكال من وجه آخر، وهو: ما الفائدة من هذا الوعيد؟

فنقول: الفائدة أن الإنسان الذي يقتل مؤمناً متعمداً، قد فعل السبب الذي يخلد به في النار، وحينئذ يكون وجود المانع محتملاً، قد يوجد، وقد لا يوجد، فهو على خطر جداً، ولهذا قال النبيّ ﷺ: «**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً**»[1]، فإذا أصاب دماً حراماً والعياذ بالله، فإنه قد يضيق بدينه حتى يخرج منه.

وعلى هذا، فيكون الوعيد هنا باعتبار المآل، لأنه يخشى أن يكون هذا القتل سبباً لكفره، وحينئذ يموت على الكفر، فيخلد.

فيكون في هذه الآية على هذا التقدير ذكر سبب السبب، فالقتل عمداً سبب لأن يموت الإنسان على الكفر، والكفر سبب للتخليد في النار.

وأظن هذا إذا تأمله الإنسان، يجد أنه ليس فيه إشكال.

الوجه الخامس: أن المراد بالخلود المكث الطويل، وليس المراد به المكث الدائم، لأن اللغة العربية يطلق فيها الخلود على المكث الطويل، كما يقال: فلان خالد في الحبس، والحبس ليس بدائم. ويقولون: فلا خالد خلود الجبال، ومعلوم أن الجبال ينسفها ربي نسفاً، فيذرها قاعاً صفصفاً.

وهذا أيضاً جواب سهل لا يحتاج إلى تعب، فنقول: إن الله عز وجل لم يذكر التأبيد، لم يقل: خالداً فيها أبداً، بل قال: ﴿خَٰلِدًا﴾ [النساء: ٩٣]، والمعنى: أنه ماكث مكثاً طويلاً.

الوجه السادس: أن يقال إن هذا من باب الوعيد، والوعيد يجوز إخلافه، لأنه

---

(١) البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: «﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ﴾ [النساء: ٩٣] ح٦٨٦٢.

انتقال من العدل إلى الكرم، والانتقال من العدل إلى الكرم، كرم وثناء، وأنشدوا عليه قول الشاعر:

وإنـي وإن أوعـدته أو وعدتـه   لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

أوعدته بالعقوبة، ووعدته بالثواب، لمخلف إيعادي، ومنجز موعدي، وأنت إذا قلت لابنك: والله، إن ذهبت إلى السوق، لأضربنك بهذا العصا، ثم ذهب إلى السوق، فلما رجع، ضربته بيدك، فهذا العقاب أهون على ابنك، فإذا توعد الله عز وجل القاتل بهذا الوعيد، ثم عفا عنه، فهذا كرم.

ولكن هذا في الحقيقة فيه شيء من النظر، لأننا نقول: إن نفذ الوعيد، فالإشكال باق، وإن لم ينفذ، فلا فائدة منه، هذه ستة أوجه في الجواب عن الآية، وأقربها الخامس، ثم الرابع[1].

---

(١) شرح الواسطية ١/ ٢٦٦، ط. دار ابن الجوزي. وأختم هذا المطلب - والذي هو مزلة أقدام- بهذا المبحث المتعلق بتعامل المسلم مع الإشكال الوارد في النصوص الشرعية:

كيف يتعامل المسلم مع ما يشكل من معاني الأحاديث:

فأقول: إن الواجب على المسلم المؤمن بالنبي ﷺ وصدقه، أن يبحث في طرق الأحاديث وأسانيدها، وصحة مخرجها، لا في إمكان وقوعها، أو سلامتها عن المعارض العقلي أو الذوقي، بل يؤمن بالخبر متى صح، ويرد ما أشكل عليه فهمه إلى عالمه والمتكلم به.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «ومن لم يعرف تفسير الحديث، ويبلغه عقله، فقد كفي ذلك، وأحكم له، فعليه الإيمان به، والتسليم له».

هذا وللاستشكال أسباب، منها:

وهو أمر قد قرر العلماء الكلام عليه عند بيان علاقة العقل بالنقل، حيث تبين أن الخلاف الذي يحصل غالباً بين العقل والنقل، يكون مرده إلى مقومات هذا العقل - المكتسب - وعوامل بنائه ومكتسباته. =

ـ معنى شهادة أن محمداً رسول الله (١)

تقدم في الكلام على معنى«أشهد أن لا إله إلا الله» أن لفظ«أشهد» يستلزم علم المتشهد بما يشهد به، من معرفة المشهود له، ومعنى الشهادة، وكذلك الحال في شهادة «محمد رسول الله»، يلزم المتشهد بها العلم بالمشهود له، وهو النبي محمد ﷺ، وبمدلول الكلمة «محمد رسول الله».

وبالوقوف على حدود هذه المعرفة يكون الإيمان بالنبي ﷺ الذي أوجبه الله تعالى على الناس؛ لذلك عرف العلماء الإيمان بالنبي ﷺ بـ: «**تصديقه وطاعته و اتباع شريعته**» وهذه الركائز – التي تضمنها التعريف – تمثل معرفة النبي ﷺ وهو المشهود

= يقول الشيخ السباعي: «إن استغراب العقل شيئاً، أمر نسبي يتبع الثقافة والبيئة وغير ذلك، مما لا يضبطه ضابط، ولا يحدده مقياس».

وهذا الموروث من الثقافة قد يصبح عند البعض عامل قصور يحول بينه وبين فهم الحديث.

ومن أسباب الاستشكال – وهو داخل فيما مضى- أن يعتقد المتلقي للحديث اعتقاداً يخالف محتواه، فمثل هذا يصعب عليه الإيمان به، أو العمل بمقتضاه.

ومنها: عدم استحضار الأحاديث الواردة في الباب الواحد، فقد يكون ما غاب عنه من الأحاديث، هو مفتاح فهم ما استشكله من الأحاديث.

وهذا الاستشكال الوارد في الأحاديث على درجات، فمنه ما يزول بأدنى نظر، إذا توفر القصد والإرادة، إلا أنه قد يرتفع إلى حد الاستنكار، وحق مثل هذا أن لا يرد، وإنما يكون النظر في أمرين:

الأول: معنى النص، فقد يكون المراد منه معنى غير الذي استنكر.

الثاني: سبب الاستنكار، فكثيرا ما يجيء الخلل من قبله.

وبالجملة :«فوجود النصوص التي يستشكل ظاهرها، لم تقع في الكتاب والسنة عفواً، وإنما هو أمر مقصود شرعاً، ليبلو الله تعالى ما في النفوس، ويمحص ما في الصدور، وييسر للعلماء أبواباً من الجهاد العلمي يرفعهم الله به درجات».

(١) ينظر لذلك: شرح معنى الشهادتين ص١٣٧-١٣٩، و حقوق النبي ﷺ على أمته، د.محمد بن خليفة التميمي ١/ ٣٤-٦٧.

له، ومعرفة الشهادة.

تنقسم معرفة -مضموني- الشهادة إلى قسمين: معرفة مجملة وأخرى مفصلة، ومحل بحثنا هنا المعرفة المجملة، **وهذه المعرفة هي التي يصح بها الإيمان، وأقل ما يلزم لصحة النطق بالشهادة.**

ـ المعرفة المجملة بالشهادة:

اصطلح العلماء على أن معنى شهادة محمد رسول الله ﷺ: «**طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع**».

ويلاحظ هنا أننا عرفنا الشهادة والإيمان به بتعريف واحد، وهذا الأمر يصح في حالة الإفراد، أما في حالة الاقتران، فالإيمان به يختص بتصديق القلب وإقراره، والشهادة يراد بها نطق اللسان واعترافه، ويجب تحقيق هذه الشهادة معرفةً وإقراراً وانقياداً.

- وأما تفصيل المعرفة المجملة فيكون بما يلي:

وقبل الكلام على تفاصيل هذه المعرفة لا بد لنا أن نذكر بين يدي هذا الموضوع ما يتعلق بأهمية هذه المعرفة:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فبمحمد تبين الكفر من الإيمان، والربح من الخسران، والهدى من الضلال، والنجاة من الوبال، والغي من الرشاد، والزيغ من السداد، وأهل الجنة من أهل النار، والمتقون من الفجار، وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، من سبيل المغضوب عليهم والضالين.

فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به واتباعه، منها إلى الطعام والشراب، فإن

هذا إذا فات حصل الموت في الدنيان وذاك إذا فات حصل العذاب.

فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته؛ إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم، والسعادة في دار النعيم.

والطريق إلى ذلك -أي معرفة النبي ﷺ وما جاء به- الرواية والنقل؛ إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدّامه، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة، فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الإسلام، وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجباً على جميع الأنام»[1].

- المعرفة المجملة بالنبي ﷺ تتم بأمرين:

١ـ معرفة اسمه: وأقل ما يلزم لصحة النطق بالشهادة أن يعرف اسمه المنصوص عليه بلفظ الشهادة وهو: «**محمد**».

وهذا مبني على وجوب معرفته عليه الصلاة والسلام، كما أن من جهل اسمه عليه الصلاة والسلام من باب أولى يجهل ما جاء به ﷺ.

٢ـ معرفة صفاته: إن معرفة النبي ﷺ بصفاته من جملة معرفته الواجبة، فأقل ما يجب معرفته من صفاته، هما صفتا النبوة والبشرية، **فبمعرفة هاتين الصفتين، يحفظ قدره وأمره، ويصان بذلك التوحيد والرسالة.**

- أما صفة النبوة:

فالنبوة لغة: من النبأ، وهو بمعنى الإخبار، لأن النبأ هو الخبر، وقيل من النبْوة، وهـي بمعنى الرفعة والعلو، لأن النبْوة هـي الشيء المرتفع، وإن كانت هذه المعاني

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٥-٦.

تدخل في معنى النبوة، إلا أن الأول منها هو الأولى. وما عداه تابع له.

وأما في الاصطلاح: «**فهي خبر خاص يكرم الله عز وجل به أحداً من عباده الذين جبلهم على الأخلاق الكريمة، والصفات النبيلة، بإيحائه إليه، ويوقفه به على شريعته**».

وأما النبي، فاختلف العلماء في تعريفه، إلا أن معظم هذه الأقوال لا تسلم من اعتراض، وأبعدها عن الاعتراض هو ما اختاره شيخ الإسلام، حيث قال: «**هو الذي أوحى الله إليه، وأخبره بأمره ونهيه وخبره، ويعمل بشريعة رسول قبله بين قوم مؤمنين**».

ـ وأما ما يتعلق بموضوع الشهادة، فإن معرفة النبي ﷺ بموجب هذه الصفة، يوجب على المسلم كمال التسليم، والانقياد لما جاء به.

قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله: «لأن آياته والأدلة الدالة على صدقه محسوسة مشاهدة قد أزعجت القلوب، وبعثت الخواطر على النظر في صحة ما يدعو إليه»(١).

فظهور الآيات المؤيدة وما يحصل في القلوب، من تحرك داعٍ إلى النظر فيما جاء به، ومن ثم التسليم والانقياد بعد تصديقه، هو من جملة إدراك صفة النبوة، والتسليم لحكمها.

يقول ابن أبي العز رحمه الله: «فأول مراتب تعظيم الأمر، التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه، والمبادرة به القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به، على أكمل الوجوه، ثم فعله لكـونه مأموراً به، بحيث لا يتوقف

---

(١) رسالة إلى أهل الثغر ١٠٧.

الإتيان به على معرفة حكمته»[١].

- **وأما الصفة الثانية: وهي صفة البشرية:**

- والمقصود بذلك أن يدرك المسلم معنى البشرية للأنبياء وما تقتضيه؛ ليتجنب طريق أهل الزيغ والضلال، من يهود ونصارى، فهم بين محقر لشأن الأنبياء ومزدرٍ لهم، وبين مغال في التعظيم حتى يصل بهم إلى درجة الربوبية والألوهية.

- وهذا الإفراط والتفريط انتقل إلى بعض طوائف الأمة، فبينما نرى العقلانيين يشابهون اليهود، من حيث تقليلهم لشأن الأنبياء وما جاؤوا به، نرى بعض الطوائف كالصوفية، تلبس الأنبياء لباس الربوبية والألوهية.

ومن نظر في الكتاب والسنة، يرى أن هذا الأمر– أقصد بشرية الأنبياء– قد جاء تأكيده مراراً؛ لما له من أهمية وانعكاس على التوحيد والرسالة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[فصلت: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقال ﷺ «...إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل، أن يجعلها طهوراً وزكاةً وقربةً، يقربه بها منه يوم القيامة» رواه مسلم[٢].

---

(١) شرح الطحاوية ٢٣٩، ط وزارة الأوقاف السعودية.

(٢) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب من لعنه النبي ﷺ، أو سبه، أو دعا عليه، وليس هو أهلاً لذلك كان له زكاة، ح٢٦٠٣.

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة؛ ذلك أن الإخلال في فهم هذه الصفة، يؤدي لا محالة إلى فهم غير صحيح لدين الله.

وهذه البشرية التي يتصف بها الأنبياء، تقتضي ما تقتضيه بشرية سائر الناس، من أكل، وشرب، ونوم، وجماع، ونحو ذلك، وهذا الأمر أدعى لقبول ما جاؤوا به من عند الله، فالنبي بشر يشعر بشعورهم، ويعيش أحزانهم وهمومهم، وهم كذلك يرون فيه ما يدعوهم لقبول ما جاء به من الهدى والعمل الصالح.

ومع القول ببشرية الأنبياء، إلا أن لهم من الكمال البشري ما يليق بهم.

وصفات النبي ﷺ كثيرة - وهي أكمل الصفات البشرية- كالصدق، والأمانة، والسماحة، والفطنة، والذكاء، وغيرها من الصفات، ولكن خصت هاتان الصفتان بالذكر؛ لأن الإخلال بهما يؤدي بصاحبها، إما إلى الغلو، وإعطاء النبي ﷺ صفات الألوهية والربوبية، وإما إلى الجفاء، ورد ما جاء به، ومعاملته كمعاملة سائر الناس، وهذا يعني الإخلال والجهل بمعرفة النبي ﷺ، ومعرفة معنى الشهادة.

المعرفة المجملة بمعنى الكلمة «محمد رسول الله»: بعد أن يعرف المسلم ما يتعلق بمعرفة النبي ﷺ وما يدل عليه اسمه، لا بد أن يعرف معنى ما دل عليه قولنا «محمد رسول الله»، وأقل ما يلزم من ذلك لصحة النطق بالشهادة ما يلي:

١ـ معرفته بدلالة قوله «رسول الله» من أن الله أوحى إليه، وأنه يبلغ عن الله، فهو صادق في كل ما أخبر به عنه سبحانه، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ – ٤].

ويعرف أنه مرسل للناس كافة، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ

أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومما ينبغي أن يعلم، أن اعتقاد عموم رسالته ﷺ، وأنه خاتم الأنبياء والرسل، وشريعته ناسخة لجميع الشرائع السابقة، لازم لسلامة شهادة أن محمداً رسول الله، إذ لو شهد للنبي ﷺ بالرسالة، لكن زعم أنه للعرب خاصة، لم يقبل منه، كطائفة العيساوية، وكذا لو جوّز بعثة رسول بعده، كما يعتقده القاديانيون، أو اعتقد أنه يسعه الخروج عن شريعته، كما يزعمه الباطنيون، وغلاة الصوفية.

٢ـ ما يستلزمه قوله «رسول الله»: من أن الله أرسله برسالة، هي دين الإسلام، وأنه الدين الحق الخاتم، الناسخ لجميع شرائع الأنبياء قبله، كما دل على ذلك قوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومما ينبغي أن ينبه عليه هنا، أن الإسلام له معنيان: معنى عام: والمقصود به ما بعثت به أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، حيث اتفق أنبياء الله ورسله على توحيد الله سبحانه، ولكن اختلفت شرائعهم، فالإسلام في زمن نوح هو ما بعث به نوح عليه الصلاة والسلام، وفي زمن إبراهيم هو ما بعث به إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والإسلام في زمن موسى هو ما بعث به موسى عليه الصلاة والسلام.

وأما الإسلام بمعناه الخاص: فهو ما بعث به محمد ﷺ،والذي لا يقبل دين سواه، فكل من كان على دين قبل بعثته عليه الصلاة والسلام، وجب عليه اتباع ما جاء به، ومن تنكب عن ذلك فهو من الكافرين.

وعليه فلا يصح لأحد أن يصف اليهود والنصارى، فضلاً عن غيرهم من أهل الملل المنحرفة بالإيمان، بل هم كفار بالله وبنبيه محمد ﷺ، فإذا علم هذا بطل ما ادعاه

بعض المنحرفين، من دعوة توحيد الأديان، أو تقارب الأديان، أو تحاورها من أجل ذلك.

٣ـ عزمه على اتباعه، والانقياد لموجب الرسالة، وأن لا يعبد الله إلا بشريعته، وسيأتي مزيد بيان لهذا الموضوع إن شاء الله.

٤ـ محبته ﷺ؛ لمحبة الله له، ولاختياره ليكون واسطة تبليغ دين الله، الذي به حياة القلوب، والفوز في الدنيا والآخرة، ومحبة هديه وما جاء به من الدين.

ومحبته ﷺ واجبة ولازمة، يجب تقديمها على محبة النفس والمال والولد، ومن علامات محبته ﷺ:

١ـ لزوم سنته والثبات على طاعته.

٢ـ الإكثار من ذكره والصلاة عليه.

٣ـ الشوق إلى لقائه ﷺ.

٤ـ أن تحب ما أحبه ﷺ، وأن تبغض ما يبغضه، من الأشياء، والصفات، والأشخاص.

❊ ❊ ❊

اتباع النبي ﷺ[١]

إن من موجبات شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ اتباع النبي ﷺ والاقتداء به، وهذا أصل تقرر في الكتاب والسنة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وقوله ﷺ: «كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبى، قيل ومن يأبى يا رسول الله ؟قال:من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[٢].

وقوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

الاتباع في اللغة: مصدر اتبع الشيء إذا سار في أثره وتلاه.

والكلمة تدور حول معاني اللحاق والتطلب والاقتفاء والاقتداء والتأسي، يقال اتبع القرآن: ائتمّ به، وعمل بما فيه، واتبع الرسول ﷺ اقتدى به، واقتفى أثره، وتأسى به.

والاتباع في الشرع: **هو الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ في الاعتقادات، والأقوال، والأفعال، والتروك، على الوجه الذي عمله، مع توفر القصد والإرادة في ذلك.**

ـ قواعد الاتباع:

١ـ إن مبنى دين الإسلام على الوحي والنقل الصحيح، لا العقل[١] والاستنباط،

---

(١) ينظر كتاب حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال ص٩٣-١٠٦، الاعتصام للشاطبي ٢/ ٢٢٦، ٢/ ٢٦٣-٢٦٥.

(٢) البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن النبي ﷺ، ح ٧٢٨٠.

ولذا كان السلف رحمهم الله يدورون مع النصوص حيث دارت، ويحكمون على الرجل أنه على الطريق ما كان على الأثر.

قال الزهري رحمه الله: «**من الله الرسالة، وعلى الرسول ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم**»(٢)

وقال أبو الزناد رحمه الله: «**إن السنن ووجوه الحق لتأتي كثيراً على خلاف الرأي، فما يجد المسلمون بداً من اتباعها، من ذلك أن الحائض تقضي الصيام، ولا تقضي الصلاة**»(٣).

٢ـ يجب على المسلم البحث عن الحكم الشرعي والتثبت فيه، قبل إتيان العمل في جميع شؤون حياته، لقوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»رواه مسلم(٤).

٣ـ ما تركه النبي ﷺ من جنس العبادات، ولم يفعله مع وجود المقتضي – أي الدافع – لفعله على عهده ﷺ، ففعله بدعة وتركه سنة.

قال الإمام مالك – إمام دار الهجرة –: «**فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً**»(٥).

---

(١) ليس المراد هنا إلغاء دور العقل، ولكن العقل تابع للشرع، وأداة لفهمه والعمل به، وليس حاكماً عليه، وقد تقدم تقرير ذلك.

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ [المائدة:٦٧] ، (تعليقا).

(٣) البخاري، كتاب الصيام، باب الحائض تترك الصوم والصلاة، (تعليقا).

(٤) مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، ح ١٧١٨.

(٥) ينظر: الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٩).

ويقول شيخ الإسلام: «**والترك الراتب سنة، كما أن الفعل الراتب سنة**»[١].

ويقول ابن كثير: «**وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل أو قول لم يثبت عن الصحابة -رضي الله عنهم- هو بدعة، لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه**»[٢].

وقال الشاطبي: «**وقد ظهر من العادات الجارية فيما نحن فيه أن ترك الأولين لأمر ما – من غير أن يعينوا فيه وجها، مع احتماله في الأدلة الجملية ووجود مظنة– دليل على أن ذلك الأمر لا يعمل به، وأنه إجماع منهم على تركه**»[٣].

- كيف يعرف ترك النبي ﷺ للفعل:

أولاً: تصريح الصحابي بأن النبي ﷺ ترك كذا وكذا ولم يفعله، كقولهم: «صلى العيد بلا أذان ولا إقامة».

ثانياً: عدم نقل الصحابة للفعل مع توافر هممهم لذلك، فحيث لم ينقل ولو من طريق واحد منهم علم أنه لم يفعله.

- تركه ﷺ لفعل أمر من الأمور لا يخلو من ثلاث حالات:

١ـ أن يترك الفعل لعدم وجود المقتضي له، وذلك كتركه قتال مانعي الزكاة، فهذا الترك لا يكون سنة.

٢ـ أن يترك الفعل مع وجود المقتضي له، بسبب قيام مانع يمنع من فعله، وذلك كتركه ﷺ فيما بعد قيامه رمضان جماعةً خشية أن يكتب قيامه على أمته.

٣ـ أن يترك الفعل مع وجود المقتضي له وانتفاء الموانع، فيكون تركه ﷺ والحالة

---

(١) القواعد النورانية (١٥٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧٨)، ط. دار طيبة.

(٣) الاعتصام (٢/ ٢٦٨).

هذه – سنة، كتركه الأذان لصلاة التراويح[١].

٤ـ كل ما يحتاجه الناس في أصول الدين وفروعه، في أمور الدنيا والآخرة من العبادات والمعاملات في السلم والحرب، في السياسة والاقتصاد... جاءت الشريعة ببيانه وإيضاحه.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣][٢].

١ـ المشقة ليست مقصودة في الشريعة: ذلك أن مبنى الشريعة والأصل فيها: التيسير ورفع الحرج عن العباد، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

ـ الاتباع لا يتحقق إلا إذا كان العمل موافقًا للشرع في ستة أمور:

١ـ السبب: وهو أن يجمع بين عبادة مشروعة وسبب مشروع مثل قيام الليل – أي التراويح – في رمضان، فهذا مشروع. ولكن أن جمع بين عبادة مشروعة وسبب غير مشروع فيكون الفعل بدعة، مثاله: إحياء ليلة الإسراء والمعراج بالصلاة أو الذكر.

---

(١) قواعد معرفة البدع ص٧٧-٧٩.

(٢) ما جاءت به الشريعة على قسمين:

١- ما جاء على وجه التفصيل، وهذا حال العبادات من صوم وصلاة ونحو ذلك.

٢- ما جاء على وجه الإجمال، بمعنى أن أصول هذا النوع موجودة إلا أن أفراده متجددة، فتحكم هذه الأفراد بأحكام الأصول فهي لا تخرج عنها، مثل أصول السياسة والمعاملات ونحو ذلك.

٢ـ الجنس: فإذا تعبد الإنسان لله تعالى بعبادة لم يشرع جنسها فهي غير مقبولة، مثل: التضحية بفرس.

٣ـ القدر: مثل أن يزيد صلاة من عنده، أو يزيد في صلاة ركعةً ونحو ذلك.

٤ـ الكيفية: مثل أن ينكس الوضوء أو الصلاة.

٥ـ الزمان: مثل أن يضحي في رجب أو يصوم في ذي القعدة بدل رمضان.

٦ـ المكان: مثل أن يقف في منىً بدل عرفات، أو يعتكف في بيته بدل المسجد.

هذا والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى إله وصحبه أجمعين.

وقد تم الفراغ منها في العاشر من شوال الخير، سنة اثنتين وثلاثين وأربعمئة وألف، ثم أعيد مراجعتها وتم ذلك في غرة محرم سنة ثلاث وثلاثين وأربعمئة والف.

❊ ❊ ❊

فهرس المحتويات

تقديم ٣
مقدمة ٥
فصل في توصيف أحوال العرب في الجاهلية ٧
فصل في توصيف العلم الإلهي وأنه المصدر في معرفة العقائد ١١
بين الوحي والعقل ١٣
فصل في تقرير العقائد في العهد النبوي ١٥
فصل في دلالة الفطرة على التوحيد ١٩
المراد بالفطرة ٢٠
منزلة الفطرة في الإسلام ٢٠
فصل في دلالة العقل على التوحيد ٢٣
أقسام العقول من حيث إدراك العقل لها ٢٤
تعريف التوحيد ٢٧
فصل في تقسيم التوحيد ٢٩
انحراف المتكلمين في معنى التوحيد ٢٩
توضيح إشكال متعلق باعتراف أهل الجاهلية بتوحيد الربوبية ٢٩
أدلة إثبات أقسام التوحيد ٣٠
الدليل الأول: الاستقراء ٣٠
الدليل الثاني: وجوده في كلام السلف ٣٠
العلاقة بين أنواع التوحيد ٣٢
الشرك: تعريفه وأنواعه ٣٥
الشرك الأكبر ٣٥
لا يشترط المساواة في كل الوجوه في الشرك الأكبر ٣٥
خصائص الإلهية ٣٥
أسباب قبح الشرك ٣٦

الشرك الأصغر ٣٧
تعريف الشرك الأصغر ٣٧
أنواع الشرك الأصغر ٣٧
فضائل التوحيد ٣٨
الكلام على كلمة التوحيد ٤٠
أولاً: ألفاظ كلمة التوحيد ٤١
معنى كلمة أشهد..... ٤١
معنى كلمة إله ٤٣
معنى لفظ الجلالة ٤٥
ثانياً: إعراب كلمة التوحيد ٤٥
الخلاف في إعراب كلمة التوحيد وما يترتب عليه ٤٥
قصة الشرك ٤٩
فوائد القصة ٥٠
الأساليب الدالة على تفرد الله تعالى في الألوهية ٥١
المعنى الإجمالي لكلمة التوحيد ٥٥
من أعظم أسباب الانحراف الإعراض عن الوحي ٥٥
مظاهر انحراف المتكلمين في معنى التوحيد والشرك ٥٦
أثر عقيدة المتكلمين على واقع الأمة ٥٨
المعنى الصحيح لكلمة التوحيد ٥٩
دلالة النفي في كلمة التوحيد ٥٩
دلالة الإثبات في كلمة التوحيد ٥٩
الأصول التي اشتملت عليها كلمة التوحيد ٦٠
الأصل الأول: معرفة الله ٦١
أهمية المعرفة ٦١
أقسام المعرفة ٦١
المعرفة المجملة وأهميتها ٦١

حد المعرفة المجملة مهم ٦٢
كيف تحصل المعرفة المجملة ٦٣
المعرفة المفصلة ٦٣
معرفة الشهادة ٦٤
المعرفة الإجمالية ٦٤
المعرفة التفصيلية ٦٤
الأصل الثاني: إفراد الله بالعبادة ٦٤
الكلام على هذا الأصل يتضمن ثلاثة أمور: ٦٤
الأمر الأول: توضيح معناه وبيان مراتبه ٦٥
الأمر الثاني: بيان معنى العبادة ٦٦
العبادة في اللغة ٦٦
العبادة في الشرع ٦٦
شرح التعريف المختار للعبادة ٦٧
خصائص العبادة ٦٧
أنواع العبادة ٦٧
الأمر الثالث: الكلام على منزلة العبودية ٦٨
كيف يحقق العبد هذه المنزلة ٦٩
من علامات الافتقار ٧٠
العلامة الأولى ٧٠
العلامة الثانية ٧٠
العلامة الثالثة ٧١
العلامة الرابعة ٧١
العلامة الخامسة ٧١
بيان مشهد العبودية من كلام ابن القيم ٧١
الأصل الثالث: الكفر بما عُبد من دون الله ٧٢
المراد بالكفر بالطاغوت ٧٣

التعريف المختار ٧٣
الإيمان بالطاغوت وعبادته ٧٥
الكفر بالطاغوت ٧٥
شرح قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ٧٥
معنى الولاء والبراء ٧٦
مكانة عقيدة الولاء والبراء ٧٧
صور من الولاء والبراء ٧٧
مسألة وحدة الأديان في ظل الولاء والبراء ٧٨
شروط لا إله إلا الله ٧٨
لا يتحقق معنى الشهادة إلا باجتماع أمرين ٧٨
شرح شروط لا إله إلا الله ٨٠
المراد من معرفة هذه الشروط ٨٢
فصل في الأعمال التي تنقض «لا إله إلا الله» ٨٣
الأعمال التي لا تنقض هذه الكلمة ولكن تنقص من التوحيد وتضعفه ٨٥
فصل في الأسباب وأحكامها ٨٦
علاقة الأسباب بموضوع التوحيد ٨٧
أقسام الناس في الأسباب من حيث الجملة ٨٨
ضوابط الأخذ بالأسباب ٨٩
توفيق بين الأحاديث الواردة في أحكام أهل لا إله إلا الله ٩١
الأصول التي تضبط هذا الباب..... ٩١
أقسام الأحاديث الواردة في هذا الباب ٩٣
الجمع بين الأحاديث ٩٥
موقف الطوائف من أحاديث الوعد والوعيد..... ٩٥
معنى الخلود الوارد في بعض الأحاديث والجواب عن ذلك ٩٥
كيف يتعامل المسلم مع ما يشكل من معاني الأحاديث ٩٧
شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ١٠٢

الإيمان بالنبي ﷺ ١٠٢
المعرفة المجملة وأهميتها ١٠٣
معنى شهادة محمد رسول الله ﷺ ١٠٣
أهمية معرفة النبي ﷺ ١٠٣
المعرفة المجملة تتم بأمرين ١٠٤
معرفة اسمه ١٠٤
معرفة صفاته ١٠٤
معرفته بصفة النبوة ١٠٥
معرفته بصفة البشرية ١٠٦
المعرفة المجملة بمعنى الكلمة «محمد رسول الله» ١٠٧
معرفته بدلالة قولنا «رسول الله» ١٠٨
ما يستلزمه قولنا «رسول الله» ١٠٨
الإسلام العام والخاص ١١٠
اتباع النبي ﷺ ١١١
معنى الاتباع في اللغة ١١١
معنى الاتباع في الشرع ١١١
قواعد الاتباع مهم ١١١
القاعدة الأولى ١١٢
القاعدة الثانية ١١٢
القاعدة الثالثة ١١٢
القاعدة الرابعة ١١٣
القاعدة الخامسة ١١٣
القاعدة السادسة ١١٣
فهرس المحتويات ١١٦